

الباب السابع

الأدب الفارسي في القرن التاسع عشر

الفصل الأول

عصر النهضة

بعد أن انتهى حكم الصفويين في إيران قامت دولتا الأفشاريين والزند وظلنا نحكمان زهاء سبعين عاماً . ولم يكن للأدب شأن يذكر في عهد هاتين الدولتين . وفي أواخر القرن الثامن عشر (١٧٩٦) استطاع محمد آغا التاجاري ، أول ملوك القاجاريين أن يلي عرش بلاده موحدة ، فبدأت البلاد تستعيد مجدها الغابر ، وانتعشت الآداب والفنون . ولم يطل عهد محمد شاه آغا في الحكم فقد مات بعد سنة تقريباً من تنصيبه ملكاً ، ولو أنه ، في الواقع ، كان الحاكم الحقيقي لإيران منذ وفاة كريم خان . وقد خلفه ابن أخيه (فتح علي شاه) ، وقد سمي باسم جده الذي كان ينافس نادر شاه أيام الصفويين ، والذي رأى نادر أن يتخلص منه كي يخلو له الجو بعد القضاء على السلطان الصفوي الضعيف ، فقتله . وكان عهد (فتح علي شاه) قلقاً ، فإن روسيا وتركيا طمعا في بلاده بعد أن مات زعيم الدولة محمد آغا ، فاضطر (فتح علي) إلى محاربتهما ، ولم يكن موقفاً . فقد الصلح معهما بمعاهدات خاسرة . وكان الإنجليز والفرنسيون يتطلعون إلى إيران ويتنافسون في الحصول على « المركز الممتاز » بها ، فبعث كل منهما البعثات إلى البلاط ، تقرباً وزلفى ، لعل الفرصة تواتى للتمكين والسيطرة . واكفهر الجو السياسي بعد مقتل رئيس البعثة الروسية وأعضائها ، فإن الشعب كان ساخطاً على الروس أشد السخط ، فانهز فرصة وجود البعثة في بلاده قثار وقتل أفرادها واضطر الملك إلى الاعتذار . ولم يكد الملك يستريح من الحروب والكروب السياسية حتى فوجئ بموت ولده (عباس ميرزا) ، ساعده الأيمن في الحرب ، والأمير الذي أدخل « المطبعة » في إيران ورعا الشعراء ونشر المؤلفات . ولم يحتمل السلطان فجأة ولده فمات بعده

بسنة واحدة تاركا العرش لحفيده محمد شاه بن عباس ميرزا الذى اضطر إلى الاستعانة بالإنجليز والروس ليقضى على منافسيه فى العرش ، عمه وأخيه . فهو مدين بعرشه إلى مجهود قائد انجيزى وجماعة من الروس . ولكنه مع ذلك لم يتهاون فى حقوق بلاده وحارب الإنجليز وقت حصار هراة ولو أنه اضطر إلى الصلح معهم . وقد تميز عهده بمحدثين ، أولها ثورة الإسماعيليين ، والثانى ظهور الباب (١٨٤٤) .

وخلفه ابنه ناصر الدين شاه ، أظهر ملوك القاجاريين ، ويمتاز عهده الطويل (١٨٤٨ - ١٨٩٦) بكثير من الظواهر الاجتماعية والسياسية والعلمية والأدبية . وكان السلطان نفسه شاعرا يجيد فهم الآداب ، وقد تعلم اللغة الفرنسية من طفولته فأجادها وقال بها الشعر ، وأحب أوربا حبا شديدا فرحل إليها ثلاث مرات . وكان شديد الثقة فى مستشاريه من أهل الغرب وكان لمشورتهم أثر كبير فى نهضة إيران . وقد اضطر فى بدء ولايته إلى مواجهة « البابية » وكان خطرهم قد تزايد وبدءوا يقاومون جند الدولة فى بعض الجهات كما بدأت دعوتهم فى الانتشار وحمل التعصب بعض البابية على محاولة قتل الشاه فقتلوا ؛ فأدى ذلك إلى جمع قوى الدولة للقضاء على هذا المذهب وأهله . وبعد أن استراح من البابية التفت إلى الإصلاح الداخلى وكان أبرز أعماله الإصلاحية إنشاء الجامعة فى إيران (دار الفنون) وجلب الأساتذة الأجانب للتعليم فيها ، وإيفاد صفوة الشباب الإيراني إلى أوربا ، إلى فرنسا خاصة ، لتلقى سائر أنواع العلم فى جامعاتها . وكثرت فى عهده الصحف ، سواء ما ينشر منها فى إيران نفسها أو فى الخارج ويرسل سرا أو جهرا إلى إيران . وأدخل التلغراف فأدى إلى كثير من الإصلاح فى إدارة الدولة كما ساعد على إطلاع الناس على أخبار أمم العالم باستغلاله فى الصحافة . وكانت رحلات الشاه إلى أوربا ، يصحبه جماعة من أهل العلم والأدب ، من أسباب تعريف الغرب بإيران ، كما أن الشاه نفسه ومن سافروا معه كانوا رسل المدينة الغربية إلى بلادهم . وقد أدى هذا الاتصال إلى إيقاظ الإيرانيين فبدأ شعورهم بالوعى القومى يظهر ، وأخذوا ينتقدون الشاه وحكومته فى طريقة الحكم الذى لا يقوم على الشورى ، كما بدأوا يظهرن التذمر من هذه الامتيازات التى تمنح للشركات الأجنبية لاستغلال منابع الثروة فى إيران مع عدم المبالاة بصالح الشعب الإيراني نفسه . وكان للصحافة والجامعة أجد الأثر فى تنوير الأذهان لهذه الأفكار الجديدة .

أما الصحافة فقد ظهرت بعد إدخال « المطبعة » إلى إيران ، وقد دخلت أول مرة أيام (فتح علي شاه) ، فقد أوفد ابنه عباس ميرزا بعض الفرس إلى روسيا ، سنة ١٨٢٤ ، كي يتعلموا فن الطباعة ويحضروا من آلاتها ما تفتتح به المطبعة في بلاده . وكانت أول مطبعة في تبريز التي اشتهرت باسم « باسمه خانه » أي دار الطباعة . ولم تلبث المطبعة أن انتقلت إلى طهران حيث رعاهما معتمد الدولة ميرزا عبد الوهاب الذي قام بنشر مجموعة من الكتب اشتهرت باسم « مطبوعات معتمد الدولة » . ومن ثم انتشرت المطبعة في كثير من مدن إيران مثل شيراز وإصفهان .

وإذا كان القرآن الكريم قد حظى بالأسبعية في الطبع المنقن ، فإن الكتب الأخرى ، وخاصة كتب التاريخ لقيت من العناية الشيء الكثير . وكذاك بدأت التراجم من اللغات الأجنبية إلى اللغة الإيرانية ، ومن أقدم ما طبع منها تاريخ بطرس الأكبر ، وشارل الثاني ملك السويد ، والإسكندر الأكبر ، وقد أمر بترجمتها ونشرها عباس ميرزا . كذلك طبعت كتب أدبية لعمدى والفردوسى وناصر خسرو وأورى وغيرهم .

وبجانب هذه الكتب الأدبية ظهرت مؤلفات سياسية كان لها أبلغ الأثر في توجيه الناس نحو الاستقلال الحقيقي الذي تبدو فيه حرية الفرد مكتملة لا تخضع لغير سلطان الحق ، منها كتاب « يك كلمه » أي كلمة واحدة تناول فيه مؤلفه يوسف التبريزى حقوق الإنسان وقارها بما جاء في القرآن والحديث والقانون الرومانى .

ومنها « آزادى چه چیزاست » (ما هي الحرية) لطالبىوف .

والكى بستمين المثقفون باللغة الفرنسية وبتزودوا بما كتب بها ظهر القاموس الفرنسى ، والمحاذثة الفرنسية الإيرانية ، والأفعال الفرنسية باللغة الإيرانية .



وقد أدت هذه الحركة الثقافية التي نتجت عن « المطبعة » إلى التطور الفكرى والتنبه إلى الإفادة من الغرب وحضارته فبدأت الحكومة تفكر في إصدار « الجريدة » التي أخذت ترقى وفق ارتفاع الأفكار . وكذلك بدأ الأهالى ينشئون لأنفسهم جريدة على نمط الجريدة الحكومية ومن ثم بدأت الجرائد تكثر وتنتشر .

ولم تكن فكرة « الجريدة » مألوفة في إيران قبل عهد ناصر الدين شاه ، إنما شاع فيها وريقات صغيرة يتداولها رجال الدولة الرسميون ويكتبها « وقائع نكار » . وفي السنة التالية من ولاية ناصر الدين شاه (١٨٤٩) ظهرت الجرائد في إيران بأمر وإشراف « أمير النظام » . ثم بدأ الأهالي والحكام ينشرون جرائد خاصة بهم .

وحينما أنشئت دار الفنون — الجامعة — بدأت الدوريات العلمية في الظهور ، فنشرت الجامعة « روزنامه علمية دولت علية إيران » وهي خاصة بأبحاث أساتذة الجامعة ، كما ظهرت المجلة العلمية « روزنامه على » سنة ١٨٧٦ .

على أن السير السريع نحو التمدن لم يكن ياتي روحا سمحا من الحكومة فقد كانت العظم القديمة التي سارت عليها الحكومات المتوالية في إيران تخاف من انتشار الآراء الحرة عن طريق الصحافة ، ولم تنح الحرية بمض الشيء ، إلا في أواخر عهد ناصر الدين شاه حين كان الشعور القومي يفيض بمغاني الحرية والحق والمساواة ، وكانت أصداء هذه الأفكار الجديدة تتجاوب في الشرق الإسلامي كله ، وخاصة في تركيا وإيران ومصر . واضطر كثير من الفرس الأحرار إلى الهرب من بلادهم حيث لم تكن حرية القول مكفولة ، وأقاموا في أوروبا أو تركيا أو مصر أو الهند وهناك أصدروا الجرائد بلقمتهم الإيرانية وسطروا بها كل ما تجيش به صدورهم ، وما تطيح إليه نفوسهم من الحرية والأمانى نحو وطنهم وأهله . وقد تحمل أصحاب هذه المجلات من الأزمات والإرهاق ما يتحمله الأحرار في سبيل الواجب الذي لا يعده شيء من ناعم العيش وترف الحياة ، مثلهم في ذلك مثل سائر الأحرار في مصر وتركيا حينذاك . وكان دخول بعض هذه المجلات إلى إيران محرما ، إنما كانت ترسل خفية إلى الناس .

وقد أصدر ميرزا مذكوم خان (نظام الدولة) مجلة في لندن اسمها « قانون » سنة ١٨٩٠ كان بحورها بالفارسية بنفسه في أسلوب سهل يحجب القراءة إلى من يطلع عليها ، وقد بث فيها أفكاره الإصلاحية فلاقته نجاحا كبيرا في إيران . وبفضل هذه المجلة دخلت اللغة الفارسية عدة مصطلحات جديدة مثل القانون بالمعنى الحديث والتنظيمات وأصول الإدارة وغيرها . وقد ترددت هذه الألفاظ كثيرا في كتابات الناس وعلى ألسنتهم كما تأثرت أفكارهم

بما تنطوى عليه من المعاني . وكانت هذه المجلة لسهولة أسلوبها أروج المجلات الإيرانية وأقوى الجرائد على بعث اليقظة في إيران في القرن التاسع عشر فقد أحييت في نفوس الناس من الأفكار السياسية ما لم يكن من اليسير بثه بينهم في إيران نفسها كما كان لها أثر أدبي إذ أخذ الكتاب يقلدون أسلوبها السهل الذي لا عوج فيه .

وفي الوقت الذي بدأت المطبعة تخرج الآثار الأدبية والعلمية المختلفة ظهرت أيضا الجامعة (دار الفنون) فقد أنشأها ناصر الدين شاه سنة ١٨٥١ في طهران ، وكانت تلتقي بها دروس بالفارسية واللغات الأجنبية المختلفة ، يلقيها جماعة من علماء الفرس واقيف من لأسانذة الأجانب ، يعلمون الشبان الإيرانيين الطب قديمه وحديثه والرياضة والتاريخ والجغرافية وغيرها من فروع العلم^(١) .

(١) يقول Browne في كتابه A Year Amongst the Persians (ص ١٠٣ - ١٠٤) إن دار الفنون تقع في ميدان «شمس العمارة» وإن التلاميذ يتفاوت عمرهم من أولاد صغار إلى شبان في الثامنة عشرة والتاسعة عشرة ، يتأزرون بزى يشبه اللباس العسكري . وهم لا يتلقون الطعام مجانا فحسب بل يتناولون وجبة من الطعام كل يوم وبذئتين كل عام على نفقة الدولة . وذلك عدا المكافآت التي يتأهل المتفوقون في الأخلاق والعلم في نهاية العام . ولم يكن تعلم اللغة العربية وعلوم الدين واليتافيزيقا ضمن المناهج الجامعية بل درست هذه المواد في المدارس القديمة التي كانت تلتحق بالمسجد ويصرف عليها من الهبات ، وكان أحسن هذه المدارس في إصفهان لا في طهران .

الفصل الثاني

الحياة الأدبية

يقول شبلي في كتابه شعر المعجم (ج ٣ ص ١٨٩) إن الشعر الإيراني الذي بدأ برودكي قد انتهى بشعر صائب وإن قآني ، أعظم شعراء القرن التاسع عشر ، ومعاصريه لم يفعلوا شيئاً غير تقليد الشعراء المتقدمين وخاصة فرّوخي ومنوچهرى . ويرى رضا قولى خان أن الشعر الإيراني لبث زمناً طويلاً في حالة تدهور وأنه بلغ الغاية في هذا التدهور قبيل قيام الدولة القاجارية . وأن الشعراء القاجاريين ، وخاصة الأول منهم ، قد قلّدوا الشعراء القرس العظام ممن ظهروا قبل سقوط الخلافة العباسية ؛ فظهرت أشعار قلّد فيها شعر خاقانى وفروخي ومنوچهرى والفردوسى وسعدى ونظامى وناصر خسرو وغيرهم . أما عن الشعراء المتأخرين ، أى بعد سقوط بغداد ، فلم يقلّدوهم . لأنهم لم يعجبوا بأشعارهم ، مثل جامى وعرفى وصائب ، كذلك لم يقلّدوا « حافظ » وإن قدرّوه كل التقدير وأعجبوا به كل الإعجاب وحفظوا شعره وتمثلوا به لأن له طريقة خاصة في الشعر عزت على التقليد .

والواقع أن تقليد الشعراء العظام لم يكن بدعاً ، فإن الإيرانيين بوجه عام يحبون شعراءهم ، يحفظون جيد شعرهم ويرتلون مختاراته ، ويكثر الشعراء منهم بوجه خاص من حفظ الشعر وتلاوة الرائع منه .

وقد نصح نظامى عروضى وهو من أوائل من كتبوا باللغة الإيرانية عن فن الشعر ، نصح من يطمح في أن يكون شاعراً بأن يحفظ في صباحه عشرين ألف بيت من أشعار المتقدمين وأن يذكر عشرة آلاف كلمة من آثار المتأخرين وأن يداوم على قراءة دواوين عطاء الشعراء وإنما يتوفر لهذا الطموح أدواته حين تستقر الحكومة في الدولة ويطهثن الناس إلى حياتهم ومعاشهم ويرون في القاعين بأمرهم من بشجع أهل الفن والعلم فيزدهر الأدب وتحيا العلوم ويظهر الشعراء ويقبلون على استذكار جيد الشعر مما قال المتقدمون كي تنمو ملكتهم ويصلوا إلى الدرجة التي يبتغون بلوغها ؛ كما يظهر العلماء ويتنازلون شتى

فنون العلم بالبحث والتأليف والنشر . وهكذا كان الحال أيام القاجاريين ، فقد استقرت أمور إيران بعد اضطراب دام أكثر من سبعين عاماً ، وولى الأسر جماعة من الأسراء أحبوا الشعر وكان بعضهم ينظمه ، فشحجوا الشعراء وقرّبهم ودلّوهم بعض الوظائف الهامة وخلصوا عليهم من ألقاب الإمارة والملك ما حُجب إليهم الطموح لبلوغ الغاية فيه . وليس عجباً أن يقاد هؤلاء الشعراء من تقدمهم من عطاء الناظرين فإن فنون الشعر لم تتغير عند قيام الدولة القاجارية فلم يكن بد من أن يكون الجديد ترديداً للقديم من حيث الموضوع .

ولكن الذي يلفت النظر ويدعو إلى التوقف قبل التسليم بقول شبلي ورضا تسليماً مطلقاً ، هو أن عطاء الشعراء في عهد القاجاريين كانوا يقلدون تقليداً مقصوداً واضحاً وأهم نبهوا في هذا التقليد وأبدعوا . لم يكن قصدهم من التقليد أن يسجوا على منوال من يقلدون فحسب ، إنما قصدوا إلى إحياء الآثار الأدبية الرائعة التي انتقلت من إيران إلى الهند والتي لم يعبأ الأسراء المتعاقبون بإحيائها في إيران حتى كانت الدولة القاجارية . وهم قلّدوا الشعراء العظام وأبدعوا ، حتى فاقوهم في بعض الأحيان . (فتباً) عندما ألف كتابه « شاهنشاهنامه » على نسق شاهنامه الفردوسي قصد إلى إحياء أدب الفردوسي قصداً ولكنه نبغ في تقليده للفردوسي حتى كان الحديث ، في نظر بعض النقاد ، خيراً من القديم . وقال آني حين يقلد كلستان سعدى فيؤلف على نسقه كتابه « پریشان » - خواطر - يرى أنه وإن كان يقلد كتاب سعدى إلا أنه « لم يأخذ كلمة واحدة من سعدى أو غيره إنما كان الكتاب كله من صنعه وليست فيه عارية وأنه خاص به فكل ما فيه من قوله وحده » . وإذا فتقليد الشعراء القاجاريين لم يكن عجزاً منهم عن التجديد ، إنما قصدوا إلى التقليد قصداً لأن أساس دراستهم هو الرجوع إلى استذكار القديم ولأن الفنون الشعرية لم تتغير ، ولكنهم لم يقتصرُوا على التقليد بل إن جديدهم فاق القديم عند بعض النقاد .

على أن الشعراء في القرن التاسع عشر لم يقتصرُوا على التقليد فإن الحياة في إيران قد تطورت ، وتفتحت للشعر والكتابة موضوعات جديدة واتسعت فنون الشعر فوسعت من المواضيع ما ترتب على تطور البلاد نحو المدنية الغربية . لم تكن الحياة الإيرانية تعرف شيئاً عن أوروبا وما فيها من نظم سياسية واجتماعية واقتصادية ، وما كان فيها من موضوعات الأدب ، شعراً ونثراً وقصصاً ، وما فيها من جامعات ومدارس . وقد عرف الإيرانيون كل

هذا في القرن التاسع عشر ، فقد أخذت دول أوروبا تتقرب من الملوك في إيران ، فأوفدت البعثات المختلفة إليها ، وكثرت استعانة الملوك بالمتشائرين من أهل الغرب ، وتعلم كثير من الإيرانيين اللغتين الفرنسية والإنجليزية ، وكان ناصر الدين شاه نفسه يجيد الفرنسية ويقول بها الشعر كما قلنا . وظهرت « المطبعة » فنقلت إلى الناس كثيراً من الكتب في التاريخ والأدب والفقه الإسلامي ونشرت بينهم القرآن ، ثم نقلت اليهم تراجم الكتب الأدبية في أوروبا وآذربيجان ، فقرأوا لقواتير Voltaire وتاريخ بطرس الأكبر وشارل الثاني عشر ملك السويد والإسكندر ، وقرأوا لاسكندر دوما Alexandre Dumas الفرسان الثلاثة والكونت مونت كريستو والملكة سرجت ولويس الرابع عشر ولويس الخامس عشر ، وقرأوا لموليير Molière الطبيب بأقوة Le Médecin malgré lui والفقير Le Misanthrope والحمار L'Ane . وقرأوا تراجم لقصص كتب في آذربيجان باللهجة الآذرية ، منذ ذكر منه قصة الكياوى في القصص . كل هذا عدا ما ذاع بينهم من تراجم الكتب العلمية والتاريخية . وكثرت الرحلات إلى أوروبا وقد ارتحل ناصر الدين شاه ثلاث مرات إليها وكان بصحبته جماعة من ذوى الرأى والشعراء والكتّاب . وأرشدت البعثات العلمية بكثرة ، وإلى فرنسا خاصة . أدى هذا كله إلى صبغ الحياة الإيرانية بصبغة خاصة جديدة ، وقد أخذ الناس يجتمعون بين ما يستطيعون تطبيقه من الجديد الذى رأوه أو سمعوا به في الخارج وبين القديم الذى لا يستطيعون إلى تبديله سييلاً ، وكذلك وجد الأدباء ، شعراء وكتّاباً ، موضوعات جديدة للشعر والكتابة .

فحدث الشعراء عن الحرية ، وحق الشعب فى أن يشارك فى إدارة الدولة ، والمناداة بأن الناس سواسية قد خلقهم الله أحراراً لا سيد ولا مسود ، وبأن الأمر شورى بينهم ليس من حق رجل واحد أن ينفرد به ؛ هذا وأمثاله لم يكن يتاح لرجال الأدب أن يتحدثوا عنه فى المهور السابقة على القاجاريين ، فهو تجديد فى موضوع الشعر الإيرانى وليس تقليداً للمتقدمين من شعراء إيران .

والشاعر الذى يتحدث عن باريس وأنوارها ويمجبه مبدأ المساواة والإخاء بين الناس ويدخل الحوانيت فلا يرى غير السمر المحدد ، مثل هذا الشاعر مجدد وليس مقلداً ولو أن

تجديده لا يمدو ذكر أوضاع أعجبه في الغرب فنظّمها لأناس يؤثرون الشعر على النثر .
وكذلك دخلت اللغة الإيرانية ألفاظ من اللغات الأجنبية ، الفرنسية خاصة ، وظلت
مستعملة بها حتى الآن ؛ ولا شك أن هذه الألفاظ الأجنبية بمدلولاتها الجديدة قد أدخلت
على الأدب الإيراني لونا جديداً . وظاهرة أخرى امتاز بها الشعر الإيراني في القرن التاسع عشر
هي ظهور « الشعر الفيدائي » عند البائية .

ومن هذا نرى أن القول بأن الشعر أيام القاجاريين كان قاصرا على تقليد فحول شعراء
إيران قبل سقوط بغداد صحيح إلى حد ما ولكن القائلين بهذا الرأي لم يأبهوا بما جد
على الشعر من التطور نتيجة لتطور الحياة في إيران نفسها وما أستتبع هذا التطور من
مظاهر التجديد .

وسأتحدث عن الشعر فالكتابة ثم القصص ، بادئا الحديث عن أشهر شعراء القرن
التاسع ، وهو الشاعر قآني .

الشعر

قآني :

وهو أشهر شعراء القرن التاسع عشر ومن أعظم شعراء إيران ، مثله كمثل حافظ وسعدي
وفردوسي ، تجرى أشعاره على الألسن ويحفظ له كثير من الإيرانيين . مال منذ صباه إلى
تحصيل العلم والأدب ونال منهما ما تمنى ، وكان أبوه ميرزا محمد علي الملقب (بگلبشن) شاعرا
أيضاً فورث الولد حب الشعر عن أبيه وأخذ ينظم ويحيد حتى بلغ القمة . قال فيه رضا قولي
خان ، وكان معاصرا له « وقد أمضيت بصحبته سنوات وصممت منه جيد الشعر والحق أنه
شاعر فاضل وكانب كامل » . التحق ميرزا حبيب بخدمة حاكم خراسان ، ميرزا حسن علي
شجاع السلطنة فقير هذا الحاكم اسمه وسماه باسم ولده (أوكتا قآن) فأصبح معروفا بقآني .
وقد صحب هذا الأمير زمنا في خراسان وكرمان وهو الذي قدمه إلى (فتح علي شاه) .
وانتقل بمد ذلك إلى طهران حيث ذاع صيته واتصل ببلاط محمد شاه وناصر الدين شاه .

وقد سار هذا الشاعر على النهج الذي بيّنا في التقليد ولكنه استطاع أن يصيغ شعره

بصبغة خاصة وقد أفاد من إجادته الفرنسية واطلاعه على آدابها ، وقد امتاز في التصيد والغزل على السواء ، وكذلك في السمط والترجيع بند . وقد قل رضا زاده شفق في كتابه تاريخ أدبيات إيران (ص ٢٨٦) « إن حلاوة العبارة في شعره كثيرة والمعاني الفلسفية والحقيقية قليلة » .

وله ديوان كبير يبلغ سبعة عشر ألف بيت ، كما أن له كتاب « پریشان » - خواطر -
نما فيه منحى سعدى في الكلكستان .

وكان يبدأ أشعاره بالوصف الذي أجاده وأبدع فيه . ومن ذلك قوله في الربيع ، مسهط:
ها هي صحابة الربيع قد عادت فملت الجبل ، وما هو السيل يجرف الصخر من عل .
وها هي الطيور تهيج من كل فيج ، تنسع اليمام و « أبو الملبح » والصاصل والحجل والبلبل
والبيغاء والطاووس والبط والسرخاب والزرزور

أهو البنفسج رسول أردببشت^(١) ، إنه ينمو في الحدائق أكثر من كل الزهور
وترى الجداول كالجزان من أربجه ، كأن ربك قد خط بالمسك على خده :

كن ياذا الشذى بشير الربيع

وعيون النرجس في الحديقة وسنانة ، وطرقة السنبل في الحديقة ملائمتها التجاميد
وكان الماء منجمدا كأنه الفضة ، فصار كالزئبق ، كأنه حين هب نسيم الربيع ملء

الربع فذاب .

ونجاة ولي فرارا في منتصف الليل

وقا آنى كما قلت شاعر مقلد وهو عظيم في تقليده ، تلد أنورى في قصيدته المشهورة

التي قال فيها :

إذا لم تكن شئون الدنيا موكرلة إلى النضا
فكيف تجرى الأمور على غير ما نرضى .

فقال :

إذا كانت الدنيا بأيدي القدر

فلم نخضع لما به الشاه أمر .

(١) الربيع الثاني ، ٢١ أبريل - ٢١ مايو .

وهو يقلده أيضاً في قصيدته التي مطلعها :
أحقيقة ما أرى أم حلم ياربي
إنى أرفل في النعم بعد طول عذابي .
فيقول :

أرى في اليقظة ما لا يرى أحد في المنام
فأني في وقت واحد مستريح مُعَي .



وهو يقلد منوچهرى فيقول على غراره :
الوقت طرب واليوم خمر والفصل ربيع ، والروح نشوى والقلب خال والحبيب قريب
ونسيم السحر عبق ، إنه يخرج من مجرة الورد المستعر ، وكأن أرض الحديقة مرآة ،
لما يجرى فيها من ماء .

أرجع البصر تر كوكبة من السمرو والسورى^(١) ، وما سمعت منتم بنم الصلصل والزرزور .
ماذا يشبه السورى ؟ إنه كبيضه من ماس ، بيضة ملئت من عود القار^(٢) .



وهو يقلد أيضاً حين يتحدث عن الربيع حديث منوچهرى فيقول :

هل الربيع وصوت البلبل في البستان يشجينا

وهذا الطير المولء ، تغريده من المروج يجي .

حتى لنقول من كثرة ما تسمع من تغريد التدرج والصلصل والدراج والزرزور

إنها أمسكت الأرغول ووقفت تنفى فوق أغصان وأوراق الزهور .

إن رائحة الزهر تتأرجح من الحديقة نتحي الروح

ويهفو القلب حين يصدح الطير فوق الفصن وينوح .

نم العنديلبي وصوت الزرزور وتأوه القمرى

سرة من الورد وأخرى من السمرو ومن الصنوبر حيننا يجي .

(٢) عود ذكى الرائحة .

(١) ورد أبيض

وترى البعض يمسك الشقائق كأنها الأفداح
والبعض يهيم بالورد فمنه رائحة الحبيب تجي .
يرى أحدهم المرج فيقول مَرَّحَبًا ، غير ملتفت ،
ويشم البعض السَّيْن (١) ويحار من صنع الذى خلق ،
يطأ أحدهم الشقائق فقد أخذت من الحر الملون ،
ويرى آخر الورد فيأخذه الوجد ، يخنخ ، منه رائحة الحبيب تجي .
واحد يتمرغ على السندس ، وآخر يرقص على الشقائق ،
واحد يفقد الوعى ، والآخر إليه الصواب يجي .
شاع فى كل ناحية نغم الأرغول والجُنك والداى
وصدى البربط والطنبور والتار من كل فج يجي .

واستمع إليه وقد أبصر الربيع فخار فى تصويره فقال :
فى الحق لا أحد يدرى من أين نجمت
كل هذه النقوش والصور فى فصل الربيع ؟
إن العقول تحار كيف تنمو هذه الأزهار الجميلة
من هذه التربة القائمة البوار ؟
مَنْ هذا المصور الماهر الذى أبدع هذه الصور
بغير علة أو آلة ولم يقاد فى صنعه أحدا ؟
كيف لا تسأل من أين ظهرت هذه التماثيل ؟
كيف لا تبحث من أين ظهرت هذه التصاوير ؟
مِنْ عشق مَنْ اصفر لون الخبىرى (٢) فى الحديقة ؟
والشقائق من حب مَنْ احترقت فى البستان ؟
ويمضى قاتلى على هذا النحو واصفا خضرة الرياحين وحرمة الشقائق البرية ثم يقول :
والريح لا عنبر فيها ، كيف تفوح بالعنبر

(٢) زهر أصفر

(١) نوع من الزهر

والسحاب لا جوهر فيه ، كيف ينثر الجوهر ...

وقد شارك قاضي شمران في بكتهم الحسين ، ولكنه يبكيه بطريقة الخاصة
فيجعل رثاءه في صورة أسئلة وأجوبة ، ويروي قصة الحسين ، وقد رأيت أن أفلها لطرافة
أسلوبها . يقول :

ماذا يهطل ؟ الدم ؟ من أين ؟ العين ؟ كيف ؟ ليل نهار ! لماذا ؟

من النعم . أي غم ؟ غم سلطان كربلاء .

ما اسمه ؟ حسين . من نسل من ؟ من علي .

من أمه ؟ فاطمة . من جده ؟ المصطفى .

كيف حدث ؟ استشهد . أين ؟ في دشت مارية^(١)

متى ؟ عاشر محرم . سرّاً ؟ كلا بل على الملأ .

أقتل ليلاً ؟ لا نهاراً . أي وقت ؟ وقت الظهر .

أقطعوا رأسه من عنقه ؟ كلا كلا ، من القفا .

أقتل مرتويّاً ؟ كلا . ألم يعطه أحد الماء ؟ أعطاه .

من ؟ شمر . من أي عين ؟ من عين الفناء .

أظلم الشهيد ؟ بلى . أأجرم ! كلا .

ماذا كان يعمل ؟ الهداية . ومن حبيبه ؟ الله .

من الذي ظلمه ؟ يزيد . من يزيد هذا ؟

من أبناء هند . من أي زوج ؟ من نطفة الزنا .

أأندم على هذه القعلة بنفسه ؟ كلا ، بل أرسل كتاباً

لن ؟ إلى ابن مرجانة الذي لا يُعرف أبوه .

أكان ابن زياد ابن مرجانة ؟ نعم

ألم يرجع عن قولة يزيد ؟ لا

(١) صحراء مارية .

أقتل هذا اللعين الحسين بيده ؟
لا ، إنه سير الجيش نحو كربلاء .
من كان أمير الجيش ؟ عمر بن سعد
أمزق ابن فاطمة العزیز ؟ لا شمر الذي لا يستحي
ألم يستح الخنجر من قطع رقبته ؟
استحي . فلماذا قطع ؟ سبق القضاء بما قضى .
لماذا ؟ كي يكون شفيحا للناس ،
ما شرط شفاعته ؟ النوح والبكاء .
أقتل معه أحد أبنائه ؟ بلى ولدان .
ومن الآخرون ؟ تسعة أخوه . ومن الآخرون ؟ الأقرباء
ألم يكن له ولد آخر ؟ نعم ؟ ومن هو ؟
السجّاد . من هو ؟ هو الذي ابتلى بالنم والبلاء .
أبقى في كربلاء أبيه ؟ لا بل ذهب للشام .
بالمز والوقار ؟ لا بالذل والامناء .
وحده ؟ لا مع سيدات الحرم ، وما أسماؤهن ؟
زينب وسكينة وفاطمة وكلثوم البائسة .
أمن كساء يستر جسده ؟ بلى ، غبار الطريق .
أمن عمامة على رأسه ؟ نعم عصى الأشقياء .
أ كان مريضا ؟ بلى . فماذا كان الدواء ؟ دمع عينه .
بعد الدواء ماذا كان الغذاء ؟ دم قلبه
أ كان له رفيق ؟ بلى الأطمال الذين قعدوا أباهم
ومن الآخرون ؟ الحمى التي لم تبارحه .
ماذا بقى هناك من زينبة النساء ؟ شيطان .
طوق الظلم في الرقاب وخلخال النم في الأرجل

أيقترف هذا الظلم كافر؟ كلا . مجوسى أو يهودى؟ كلا .
هندوسى؟ كلا . عابد صنم؟ كلا . يا ويلتاه من هذا الجفاء
أينظم قآآنى هذه الأشعار؟ لى .
ما ذا يريد؟ الرحمة . ممن؟ من الحق . متى؟ وقت الجزاء .



ولم يكن قآآنى ببداً عما يجرى فى البلاد من خطوب ، فهو معاصر للباية متأثر بها ،
وقد أعجبته مبادئ الباب فى أول ظهوره ، وظن أن الهدى « المنتظر » قد ظهر ، وأن على
للناس أن يتجهوا إليه ، وأن الدولة نفسها قد تميل إليه وتؤيده ، فقل قصيدة يجذب فيها
المذهب الجديد بادئنا بقوله :

إن قدوة الإنس والجن قد ظهر

وإمام هذا وذاك المنتظر .

ولكنه لم يلبث أن رأى الدولة جادة فى محاربة المذهب ، وأن الباب نفسه قتل ،
فيعدل عن تأييد الباية . ورأى ثلاثة منهم قد اعتدوا على السلطان ناصر الدين فأسرع
إلى قلبه يصف الحادث الشنيع وقد قال فى هذا :

لقد خرج كسرى آخر شوال يصطاد

السماء فى عناءه والشمس فى الركاب

فقجأه ثلاثة رجال من كين

وصوبوا النار على كسرى مالك الرقاب .

وهو فى قصيدة أخرى يتغنى بهذا الحادث ويدعو الناس إلى أن يجعلوا منه عيداً
كعيد الأضحى :

عقدوا آخر شوال منذ اليوم

وادعوا خدم الملك من كل حى

نادوا الحبيب ودعوا الزاهد

ومروا الخازن ببذل العطاء

ألا أيها الساقى أدر الكؤوس
ألا أيها العازف أطرب
وخلّ أهل الغناء يفتنون
سموه عيد قربان الملك
واذبحوا أعداءه ذمخ الخراف
في طريق الملك المظفر .

ولم يكن هذا التحول من بابي بمدح الباب ويشيد بمذهبه إلى عدو للمذهب ينظم
الشعر في مدح قاتل الباب ، وعدو للمذهب الذي أخرج رؤسائه من إيران وعذب أتباعه
تعذيباً لم يكن هذا عجباً من قآ آنى ، فإن المعانى الأخلاقية كما قال رضقولى ، لم تكن تظفر
بعباية كبيرة من هذا الشاعر . وقد حدث أن كان يمدح الوزير حاجى ميرزا اقامى الذى
وزر لمحمد شاه بعد مقتل وزيره الكاتب الأديب القاتمقام (أبى القاسم) والذى أقصى عن
السلطة بعد ولاية ناصر الدين شاه . فحين أجد هذا الوزير وولى مكانه ميرزا تقي خان ، قال
قآ آنى يمدح الوزير الجديد :

لقد ذهب الظالم الشقى ، وجاء العادل التقى ، الذى يفخر به المؤمنون الأتقياء .

واقآ آنى قصيدة مشهورة تصور الحديث بين شيخ وطفل الكنين ، وقد رأيت أن
أكتبها بنصها ليرى القارى كيف استطاع الشاعر أن ينظم الحديث كما جرى بينهما :

پبركى لال سحرگاه بطفلى الكن

ميشنودم كه بدین نوع همى راند سخن

« ك ای ز زلفت صَ - صَ - صبحم شَ - شَ - شام تارليك ،

واى زچهرت شَ - شَ - شام صَ - صَ - صبح روشن !

تَ - تَ - تریا قیم ، وازش - شَ - شهد لَ - لبت

صَ - صَ - صبوت تَ - تَ - تا بم رَ - رَ - رفت ازت - تَ - تن . »

طفل گفتا: « مَ - مَ - من راتو - تقايد مَ مکن !
 کُ - کُ - گم شوز بَرَم ، ای کُ - کُ - کنتر از زن
 م - م - می خواهم مَ - مَ - مُشتی ب - کُ کلت ب - زخم
 که بیفتند مَ - مَ - مغزت م - میان - د - دهان ؟ »
 پسر گفتا: « و - و - والله که معلوم است این
 که که زادم من بیچاره ز مادر الکن !
 ه - ه - هفتاد و هشتاد و سی سال - است فزون
 کُ - کُ - گنگ و ل - ل - لا آ ب - ب - خلاق زمن !
 طفلی گفتا: « خ - خ - خدا را ص - ص - صد بارش - شکر ،
 که ب - ب - رستم بجهان از مَ - ل - لال و مَ میجن !
 مَ - مَ - من م ج - ج - گنگم م - م - مثل - ت - ت - تو ؛
 ت - ت - تو م ج - ج - گنگ مَ - مَ - مثل - م - م - من ا .
 والقصيدة تمثل حديثاً جرى بين طفل وشيخ وقت السحر ، وكأما الکنين . فقال
 الشيخ : يا من صار صبحي ليلا بهيها من زلفك ، ومن جمال وجهك أضاء ليلي كالصبح إذا
 تبليج . أنت ترياقي ومن شهد شفئك يزول الصبر والحى عن جسدى . فقال الطفل غاضباً :
 لا تقلدنى ، واذهب عني يا أقل من امرأة ! أتريد أن أضربك بقبضتى ضربة توقع مخك
 وسط فك . فقال الشيخ : والله إن أمى ولدتنى الکن ، ولقد مضى والله أكثر من ثمانين
 سنة وأما الکن . فقال الطفل : شكراً لله مائة مرة إذ أنجاني من اللال والحن ، فإني
 الکن مثلك وأنت مثلى الکن ...

وكما قلنا قاتنى عظام الشراء فى شعره فكذلك قلنا سعدى فى گلستان فكتب كتابه
 المسمى « بریشان » ضمنه ثلاث عشرة ومائة حكاية وثلاثا وثلاثين نصيحة « ميكياؤيلية »
 للعلوك . وقد نفي عن كتابه شبهة التزايد فقال إنه كله من عنده .

مجموعه :

وشاعر آخر من مشاهير شعراء القرن التاسع عشر الذين امتازوا بطابع خاص هو ميمون
الإصهاني (سيد حسين الطباطبائي) . وقد نجح هذا الشاعر في أن يحظى برضاء (فتح علي
شاه) وإعجاب به حين قدمه إليه « منشى المالك » ميرزا عبد الوهاب . وقد مات بجر شابا ،
ويقول رضا قولى خان : « إنه لو طُل عمرة لاقى نجاحا عظيما » . وقد خلع ناصر الدين شاه
عليه لقب مجتهد الشعراء . ومن أشعاره الطريفة قوله فى الألفاظ . قال فى لغز الربيع :

من هذا الرسول المبارك المقدم السعيد الجناب
الذى يجرى آماء الليل وأطراف النهار ويسارع السنين والأشهر
فى ذيله النافجة وفى عبه العبير ،
فى جيبه العنبر وفى كفه المسك الأذفر ،
سيار بلا قدم أو رأس ، مجنون بلا عقل أو وعى ،
عاشق لا بيت ولا مأوى ، هائم لا أكل ولا منام ،
لا يدري أحد أى عشق أفتده القرار
ولا درى أحد أى هجر أورثه العثار ،
يخرج منه الماء خروج قلب العاشق من زلف الحبيب
تارة فى السلاسل ، وتارة فى العذاب ،
تارة يبيت الأرض ، وطورا يحبها
كالتقوى فى الهرم ، والطبيعة فى الشباب ؟

•••

وله فى لغز القلم :

أما سحابة تمطر الجواهر على حديقة ورد النفس الناطقة
أمطر السكر ، أثر العنبر
مثل شفة الحبيب وزلف الرفيق

وأنا المعتبر عن طبع « الدستور »^(١) وأمر السلطان
حين أنثر الدر ، وأمطر الجوهر ؟

وقد امتاز بحر بقصائده في مدح السلطان والأسراء وكان يقلد فيها مدائح السابقين .

أسرة وصال :

ومن المشاهدات التي تشاهد في أدب القرن التاسع عشر أن تجمد الأسرة وقد حافظت على إماراة الشعر فيها ، ، فنجد الوالد وأبناؤه وكلهم شاعر مجيد ، مع أن منهم من لا يتخذ الأدب وقول الشعر صناعة بل يشتغل بالطب مثلا فلا يلمه الطب عن قول الشعر والنبوغ فيه . وتجد من الأسرة الواحدة من يقول الشعر فيقلد الأقدمين من الشعراء ويسير سيرتهم ومنهم من يرتحل إلى أوربا فيصف أشياء لم يعرفها الناس في إيران ويدخل اللغة ألفاظا أجنبية ليست منها . حقيقة إن وصف هذه الأشياء لا يخرج القول عن أن يكون وصفا ، والوصف غرض من أغراض الشعر المعروفة لدى الفرس ، ولكن لأفكار الجديدة التي يصورها الشاعر والألفاظ الجديدة التي يستعملها للدلالة على معانٍ ليست موجودة في بلاده ؛ كل هذا يكسب وصفه جدة تميزه وتجعل له طابعا خاصا .

وخير مثال لهذه الأسر التي تسلسل فيها الشعر وحافظ أفرادها على ما كسبوا من القاب أسرنا (وصال) و (صبا) .

كان وصال (ميرزا شفيق الشيرازي المشهور بميرزا كوچك) من أشهر شعراء الفاجاريين . وقد اهتم به رضا قولي خان فتحدث عنه في ثلاثة من كتبه كما عني به بشمل في كتابه « تذكرة دلکش » وقال عنه إنه كان صاحب فن ، يجيد الخط والمزف ويقول جيد الشعر ولكنه كان سريع الغضب ، وإنه كان مخلصا لأصدقائه ويحبل القول فيه فيقول « كان عديم المثال » . كذلك رضا قولي خان يرى فيه مثل رأى صاحبه ، وكلاهما كان صديقا لوصال ، ويقول

(١) الدستور هو الوزير

رضا إنه كان شديد التأثر إلى حد أنه غضب حين أراد السلطان أن يبدي إعجاباً به فقال له إنك أسرفت في الكمال . وقد كتب ديواناً بلغت أبياته نحو إثني عشر ألف بيت معطاه في الغزل الذي يعتبر الفن الذي آثر العظم فيه فبرّ وأدع . وقد أجاد في المتنوى أيضاً ويشهد بذلك كتابه « بزم وصال » ، وقد أتم « فرهاد وشيرين » التي بدأها (وحشى) . ويقول بعض النقاد إن التكملة خير من الأصل . ثم إنه اشتغل بالترجمة فنقل إلى الإيرانية كتاب « أطواق الذهب » لالزخشرى .

ومن أشعاره التي يقلد فيها منوچهرى قوله في وصف الزلزال :
إن هذا البلد ، من كثرة هزات الزلازل ، قد تقطعت منه المفاصل .
وارتفع من شقوق الأرض بخارتن كرايحة السحر من بئر بابل .
وقضى على رسوم هذه الديار فدرست كما تمحى من النفوس الفضائل .
وترى وجوه الفيد تحت الثرى ، فليس يقال إن الطين دون الشمس حائل .

ومن أبياته التي حوت معنى لطيفاً قوله :
تنبه فلا تغضب منك أى قلب فلكل قلب إلى الله طريق .
وقوله :

فاض دمعى حتى غرقت به ، والنار تكوينى
مجا لى ، كيف الحريق وأنا فى الدمع غريق .

وكان لوصول أبناء يقولون الشعر ، وقد اشتهر منهم وقار وداورى ويزدانى وهمت وحكيم وميراز أبو القاسم فرهنك وقد تحدث أحدهم عن الخمر ، وآخر عن رحلة صيد للسلطان وثالث تنازل الفنون الشعرية كما تناولها من سبقه من الشعراء ، ولكن الأخير منهم تحدث يصف باريس مستعملاً في هذا الوصف ألقاظاً فرنسية متناولاً ما رآه في هذا البلد الجميل المتلألئ الذى فاض بالجمال وظهرت به المدينة الغربية فى أحسن مظهر لها بين مدن أوربا ، والذى استهوى ولا يزل يستهوى الكثيرين من أهل الفكر . على أن باريس كانت جديدة حينذاك بالنسبة لإيران كل الجدة ، فإن الرحلات إلى الغرب لم تكن قد كثرت بعد ، وإذا

كانت البعثات العلمية قد بدأت توفد في ذلك الحين إلى باريس فإن الشباب المبعوث كان منهمكا في العلم دائبا على التحصيل في المعاهد المختلفة وفي المكتبات الكثيرة التي تلتحق هذه المؤسسات العلمية . أما الأديب الذي كان يبحث عن المعاني الحقة للمدنية فقد بهره مارامى وآثر أن يجمل هذا في قالب شعري . فكانت قصيدته التي تتحدث عنها . إنه معجب بسكان هذه المدينة الأحرار الذين تلمس الحرية عندهم في كل ما يشعرون ويفعلون ، إنهم جميعا سادة فلا سيد ولا مسود ، منقرا ما شئت أن تقرأ بغير حظر أو قيد وستنقل ما شئت التنقل بلا رقيب أو حسيب وستحس حريرتك التي خلقت بها وليس ابشر عليك سلطان فإلك حر بين قوم أحرار . وستجد كلا في عمله دائبا عليه يجنى منه ما يعيش به كرما ، وترى دولة ترعى هؤلاء الذين يكسبون قوتهم بأيديهم فهي توفر لهم سبل العمل وتحميم من صاحب هذا العمل فترام جميعا يعملون وليس بينهم من لا يجد عملا أو من يبحث عن قوت .

وشوارع باريس جميلة قد زينتها الأشجار فبدت كأنها حديقة إرم ، ففي كل ناحية ترى السرو والصنوبر ، وراها قد تلالأت بالانور فإن الحكومة لم تتوان عن إضائتها فأكثرت المشاعل والمصابيح والشموع ، وقد كثرت فيها البساتين التي امتلأت بخمائل الزهور فأبنا سرت ترى الورد والنسرين وترى في كل طرف الورد والزهار حتى أصبحت باريس من كثرة ما فيها من الورد والعطر ورائحة الريحان كأنها « مجمع عطور » . ويدخل الشاعر الحوانيت يشتري ما يريد فإذا به لا يجد من يناقشه الأسعار ، إنه يشتري بثمان واحد لا خلاف عليه ، وهو مطمئن لهذا الثمن الذي يدفع ، فلا كذب ولا تحايل . إنهم قوم يقولون الصدق ويخلصون في العمل فإن الصدق عندهم شعار .

وهم على دين واحد ، عيسويون ، وقد أخذوا عن المسيح خلقه ، فهم يتحلون بنحير الخلق ، فهم صادقون ، وكل منهم يؤثر صاحبه على نفسه ، ولذلك ساد الأمن في المدينة بغير سلطان ، وصلاح الناس من غير قوامة الإنسان على أخيه الإنسان . وهم متضامنون متآزرون ، الأمر بينهم شوري فإذا تمت كلمة أيدوها وعلوا بها ، فلا تنافر ولا تحايل ، إذا قاموا فليس من قاعد ، وإذا عزموا فلا مشيط لهم .

ويعجبه انتشار العلم فيهم ورقى هذا العلم الذي ذلل لهم كل صعب ، وكشف لهم عن كل سر .

والحقيقة أن دراسة هذه التصيدة لا تنف عند حد سرد وقائع أعجب بها الشاعر فمددها واحدة واحدة ، وإنما قصد الشاعر إلى ذكر المظاهر التي تنقص بلاده ، فهو حين يشيد بالحرية الشخصية وكرامة الفرد في المجتمع إنما يقصد المطالبة بالعمل بهذا المبدأ في بلاده حيث سلطة الحاكم مطانة لا قيد لها من دستور أو قانون . وهو حين يتحدث عن العمال وتيسير العمل إنما يقصد واجب الحكومة الإيرانية في أن تشجع الصناعة وتعمل على توفير العمل للعمال حتى لا يكون بينهم متعطل ، وأن تحمي هؤلاء العمال من أصحاب العمل فتكفل لهم من الأجر ما يهيئ لهم أسباب العيش الكريم . وكذلك يقصد العناية بطهران كما عنيت الحكومة الفرنسية بباريس فتقيم فيها الحدائق الغناء وتفرس في شوارعها الأشجار . وتزيد بها المدارس وتنتشر دور العلم . وهو حين يتحدث عن الشورى وإجماع الأمر على ما يقرره نواب الأمة إنما يقصد ما كان ينادى به المستنيرون من الإيرانيين في ذلك الزمان . فقد التمس جمال الدين الأفغاني من ناصر الدين شاه أن يسمح بمشاركة الشعب في الحكومة عن طريق مجلس نيابي ، ولكن صوت السيد قد ضاع سدى فلم تكن العقيلة الحاكمة تقيم لمثل هذه الآراء وزنها الواجب ، واضطر إلى الهجرة كثير من أحرار الفرس كي يتاح لهم النداء بهذا الرأي في الخارج ، وكذلك أخذ الشعراء والكتاب يكتبون تصريحات وتلميحا ، وفق ما يقتضيه الحال ، ومن هذا ما كتبه فرهنگ عن الشورى التي سادت الحكومة في فرنسا .

هذه أمثلة من الأفكار التي بثها الشاعر في قصيدته الطويلة تبين الاتجاه الجديد الذي صار فيه الأدباء في ذلك الوقت ، وهو الاتجاه الذي أدى في أوائل القرن العشرين إلى ثورة انتهت بمنح الإيرانيين دستورا يتيح للشعب أن يشارك بعض المشاركة في توجيه الحكومة .

أسرة صبا

وأسرة أخرى نبغ فيها الشعراء واحداً بعد آخر هي أسرة صبا ، ملك الشعراء . واسمه فتح علي كاسم جد الفاجاريين وكاسم ثاني ملوكهم . وقد تحدث عنه رضا قولي خان ، وكان

من المعجبين به فقال إنه لم يدانه شاعر في إيران طوال سبعة قرون . وهو الذى يؤثر بعض النقاد كتابه « شاهنشاه نامه » على شاهنامه الفردوسى نفسها . وكما قلد الفردوسى فى شاهنامته فكذلك قلد كتب سِيَر الملوك التى أخذ عنها الفردوسى وغيره من المؤرخين المسلمين الذين كتبوا عن إيران وهى الكتب المعروفة باسم « خدای نامها » أى كتب الملوك ؛ فألف صبا كتابا على مثل هذه الكتب سماه « خداوند نامه » أى كتاب الملك ، وجعله على وزن الشاهنامه . وله أيضا « عبرت نامه » و « گلشن صبا » ثم له ديوان شعر . وقد شارك هذا الشاعر فى الحكومة فكان عاملا على قم وكاشان ، ولكنه قصر الجهد آخر الأمر على خدمة مولاه فتح على شاه الذى لقبه بتلك الشعراء .

وكان لهذا الشاعر ولد هو حسين خان الملقب بعنديب ، وكان شاعرا مجيدا خاف والده كملك للشعراء أيام فتح على شاه ثم ظل محافظا على لقبه حتى عهد ناصر الدين .

ثم أنجب ولدا سماه محمودا وقد صار ملك الشعراء أيضا فى زمن ناصر الدين شاه . وهكذا حافظ ثلاثة من أسرة واحدة على هذا اللقب .

محمود شاه ملك الشعراء

كان مجيد الشعر وبسير سيرة الاول فيه . وهو مع تنوعه فى الشعر لم يكن يقتصر عليه بل تبحر فى علوم الحكمة والحديث والتفسير والأدب كما أجاد صناعة الخط والنقش والترصيع وقد قر به ناصر الدين شاه وخلع عليه اللقب الذى حمله أبوه وجدته من قبل . وهذه الأبيات من شعره فى حلول النوروز وهلول الربيع دليل على قدرته فى النظم على نهج المتقدمين وما له من الذوق الجميل والتريجة الصافية : يقول :

تعال معى ، لحظة يا حبيبى فى الحديقة

وقت السحر ، حين يفرد القمرى

إنى ذاهب إليها غدا

حين يتسم السورى^(١)
من ناحية ترى الأرض زرقاء مما تفتح من بنفسج
ومن ناحية تراها بيضاء من زهر النفل^(٢)
الرعد ينحب والسندس بالنحيب يطرب
ويبكي السحاب والمرج من البكاء يضحك
حينما تسير نجد الشقائق البرية
وترى الشمعة الوضاعة علت القدح الأخضر
وجانب الجدول مليء بالشقائق والمرزنجوش^(٣) ،
فاسترح وأقم نخيمك يا حبيبي بجانب الجدول .
وتوسل بالفرح في موسم الزهر
وخلص النفس من الحزن والغم .
فالحزن فاكهة مرة لا تقربها
واجتث شجرته التي تثمره من أساسها
ولا تفكر في الليلة الحلى
فلا يعلم أحد ماذا تلد غدا .

ثنائي : وما دنا بصدد الشعر فاني ذاكر كلمة عن أحد كبار الكتاب في إيران في القرن
التاسع عشر؛ فقد قال الشعر أيضا باسم ثنائي وكان مجيدا فيه إجادته في النثر ، إلا أن شهرته
في الأخير أبعده وأمكن ، هذا هو الشاعر الكاتب ميرزا أبو القاسم القائمقام ، الذي كان
وزيرا لفتح علي شاه ، مديرا لسياسة مَسْطَرا لكتبه للملوك ، والذي أدير حظه أيام محمد
شاه فعزل ثم قتل .

ويتماز هذا الشاعر بمعرفة الحالة السياسية في البلاد التي كان وزيرها ، فهو يفيض
الروس والإنجليز لأنه يعرف خبيث نواياهم وقد رأى الروس بهزيمون جيوش بلاده أيام فتح
علي شاه ، ورأى نفسه مضطرا أن يكتب معتذرا إلى قيصر الروس لأن بعثته قد قتلت على

(١) الورد الأبيض . (٢) ورد .
(٣) الورد الأبيض والكلمة معربة أصلها مهرنكوش .

بكرة أبيها في إيران ، وقد كتب يئبه قومه إلى أن لا يأس مع الحياة ، فإن الحرب كره
وفر ، وإذا كان الروس قد غلبوا اليوم فإنهم غدا سوف يغلّبون . قال :

إن الزمان تارة يعز وتارة يذل ،

ولأنك الدوار كثير من هذه الأعبات .

إذا أقبل فكثيراً ما يخطئ المكان والزمان

وإذا أدبر فطالما ألم وأهان .

إبه يعطف أحيانا على ضباط الروس (١)

وأحيانا يسقى ضباط إيران النصر بالكوس .

يريد حيناً أن يكون الجيش بيد ذئب مفترس

ويدع البلاد طوراً في يد مجرب يسوس .

يسوق على تبريز ، مرة ، جيشا يريق الدم من بطرسبورج

ويسير أحيانا جيشاً جراراً من خراسان إلى تفليس .

أدب البايية :

وقبل أن أختم الحديث عن الشعر النازمي في القرن التاسع عشر أشير إلى أدب البايية ،

والباييون هم أتباع المذهب الذي ابتدعه ميرزا علي محمد الذي اشتهر بالباب .

معنى كلمة الباب : ظهر في إيران أيام محمد شاه (سنة ١٨٤٤) رجل اسمه ميرزا علي محمد

ولقب نفسه « بالباب » ، وإليه نسبت الجماعة فقيل لهم « البايية » . وقد قصد بهذه

التسمية أنه هو الباب الذي يدخل منه المؤمنون لمعرفة الإمام الثاني عشر . وينسب الشيعة

إلى النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « أنا مدينة العلم وعلى بابها » . فكأن علياً هو

الباب لمدينة العلم التي هي محمد صلى الله عليه وسلم فكذلك ميرزا علي محمد هو « الباب »

لمدينة العلم التي هي الإمام . ولم يكن هذا الرجل أول من تسمى « بالباب » بهذا المعنى ،

فقد سبقه إليه في الإسلام الشلمغاني الذي قتله الخليفة الراضي بتهمة التسمى « بالباب »

(١) يقول الشاعر رب الضباط ، فالروس : باكسنيك ، كيتان ، أفيسر . والفرس سرهك (بكباشي) ،

سرتيب (أميرلاي) ، سردار (قائد) .

والقول بالتناسخ . وكذلك نسمى به أبو القاسم الذي عدّه أتباعه واحداً من « الأبواب » المؤدية لمعرفة صاحب الزمان ، ويُذكر الاسم كثيراً عند الباطنية .

وكان ميرزا علي محمد طفلاً يتيماً تعهده خاله وكان تاجراً ، فعلمه القراءة والكتابة وبعض قواعد الحساب . وقد كان به انحراف عصبي منذ طفولته فكان يعتكف في بيت خاله وينقطع إلى رياضة نفسه حتى ضعف وهزل وتعرض لنوبات شديدة كان يفقد فيها الوعي ، فرأى خاله أن خير وسيلة لشفاء هذا « الوَلِيّ » أن يرحله إلى كر بلاه ليحضر دروس السيد كاظم تلميذ الشيخ أحمد الأحسائي صاحب مذهب « الشيخية » . وهناك توفر الشاب على الدرس والتحصيل ومارس رياضة النفس ، ودأب على المجادلة فلم يصبر الناس على جدله ، فتركهم وسافر إلى شيراز حيث أعلن أنه « الباب » .

وإذا تصفحنا تاريخ إيران نجد أن ميرزا علي محمد ليس أول من خرج على دين الدولة ، فمن قبل عمل الساسانيون الأول على جمع الكلمة في إيران فوحدوا إقليمها واتخذوا من الأوستا ديناً واحداً لها . فلم يعض على ذلك كثير حتى ظهر ماني بقواعد جديدة جمعت بين دين زردشت الذي أُجمع في الأوستا وبين أصول الدين المسيحي وأخذ يبشر بمذهبه واستطاع أن يقنع عدداً كبيراً من الأشراف به ، حتى أن سابور خليفة أردشير كان بين مصدق له ومكذب ، إلى أن خشيت الفتنة من دعوته فقتلوه . ومن بعده ظهر مزدك الذي دعا إلى الإصلاح على أساس دين جديد جمع فيه بين قواعد الأوستا وبين النظام الاجتماعي المثالي الذي يقوم على المساواة بين الناس . وقد لقيت فتنة مزدك من نفوس العامة استعداداً كبيراً فأخذ كل يفسر الدين الجديد حسب هواه ، وانتهى أمر الرجل بقتله ، أما أتباعه فقد نشتوا وسكنوا الجبال والأطراف البعيدة وظلوا على معتقداتهم حتى دخل الإسلام إيران فظهر من هؤلاء خارجون عليه من أمثال سنياد .

وقامت الدولة الصفوية ورأى الشاه اسمعيل أن يتخذ مذهب الشيعة الاثني عشرية مذهباً رسمياً للدولة ، كي يخلص من التبعية الروحية للخليفة العثماني ، وقد حفزه على هذا عامل السياسة وشجعت عليه دول أوروبا ، فلما آل أمر إيران إلى نادر شاه بدأ اضطهاد المذهب الشيعي والتفكير في العودة إلى المذهب السني بل ذهب إلى التفكير في خلق دين جديد للدولة .

وقبل مائة سنة من مقتل نادرشاه ظهر « الباب » في إيران بمذهب جديد ، مزج فيه ما تعلم — وكان علمه ضئيلاً — من قواعد الأديان المشهورة ، الإسلام والنصرانية واليهودية والمجوسية وجعل لنفسه كتاباً سماه « البيان » وخرج على دين الدولة داعياً الناس إلى دينه . ولم يتح للباب أن يتصل بالناس ويدعوهم بنفسه فإنه كان ، حتى قتل سنة ١٨٥٠ ، سجيناً معظم الوقت . فأخذ يؤلف الكتب المذهبية وهو سجين ، بينما أخذ أتباعه يدعون له ولذهبه في حماسة وقوة ، حتى استطاعوا القيام بشورات مسلحة وأخرجوا الحكومة . وقد أخذ أتباعه يزدادون ، وساعد على ذلك أن من الشيعة من يرى أن للإمام المهدي « أربعة أبواب » يتصل بواسطتهم بأتباعه المؤمنين أثناء « الغيبة الصغرى » . وقد نادى « الشيخية » ، وقد تعلم « الباب » على إمامهم ، بوجود « واسطة » بين الإمام المستور وأتباعه في كل زمان . على أن ميرزا علي محمد لم يقنع بما ذهب إليه من أنه واسطة بين المؤمنين وإمامهم ، بل ذهب أبعد من هذا (بالآثر رقت) فسمى نفسه « النقطة العليا » أو « نقطة البيان » أو « النقطة الأولى » ثم « القائم » و « شجرة الحقيقة » و « ذات الحروف السبعة » — حروف علي محمد — ثم « حضرة الأعلى » وغير هذا من الأسماء . وازداد أصحابه غلواً فتسمى بعضهم « بالله » وسموه هو « خالق الآلهة » (خدا آفرين) . وحين أدرك علي محمد أنه أخطأ إذ حسب نفسه « الباب » وأنه أعلى قدراً من أن يكون « باباً » أصبح لقب الباب ولا حامل له فخلفه على أخلص أتباعه الملا حسين بشرويه ، فسماه البابية « جناب الباب » وسماه بعضهم « جناب باب الباب » .

ولما ازداد غلواً « البابية » وخشيت فتنتها رأى ناصر الدين شاه أن يقتل « الباب » وقتلوه سنة ١٨٥٠ . وخلفه ميرزا يحيى الذي هرب إلى بغداد وسمى نفسه « صبح الأزل » ولكنه لم يكن قويا واضطره أخوه حسين الملقب « بهاء الدولة » إلى الاعتكاف والصمت وانفرد هو برياسة المذهب وأصبح أقوى رجل فيه . وفي سنة ١٨٦٣ ادعى بهاء الله أنه هو الذي « يظهره الله » ودعا البايين كافة ليستجيبوا له فاستجابت كثيرتهم . ولكن صبح الأزل وصحبه عصوا ومن ذلك الوقت انقسمت البابية إلى فرقتين : « الأزلية » أو « البايانية »^(١) و « البهائية » نسبة إلى بهاء الله . وكان الأخوان قد انتقلوا من بغداد إلى استنبول ثم إلى

(١) نسبة إلى كتاب البيان .

أدرنة (أرض السر) وهناك حدث الانقسام فنفت الحكومة العثمانية صبح الأزل إلى قبرص حيث مات سنة ١٩١٢ ، ونفت بهاء الله وأتباعه إلى عكا حيث مات سنة ١٨٩٢ خلفه ابنه « عباس افدى » الذى استطاع أن يكسب للمذهب أنصارا فى أوربا وأمريكا .

والذى يهمننا فى هذا الحديث هو أدب البابية لا دينها ، ولذا فإننا نترك موضوع الدين للأدب فتحدث عن شاعرة من شعراء البابية .

قرة العين :

كانت قبلة الأنظار وموضوع الحديث لدى الناس ، فقد كان لها من الجمال والكمال وعلو الهمة وسلامة المنطق والقدرة على الحديث والإبداع فى الشعر نم الحماسة التى لا توصف للمذهب البابى ما جعل الناس ينظرون إليها ويمجّبون بها ويشفقون عليها . سمع بها ناصر الدين شاه كما سمع بها الناس فأعجبه ذكرها ، وراق له أن يستمع لها ، فطلب أن يلقاها فى الوقت الذى اشتد فيه طغيان البابية وسدّدت الدولة قواها للقضاء على حركتهم ، واقتادت جماعة منهم إلى طهران لتقتلهم جهاراً حتى يكون مقتلهم للناس عظة وعبرة ، فأتوا بها إلى الشاه من محبسها ، فدخلت عليه غير هيابة ولا وجلّة ، مؤمنة برسالتها ، معتزة بما تعتقد أنه الحق ، فحدثته واستمع إليها وطال استماعه . فلم يقو الشاه الذى أمر بقتل البابية قتلاً وتعذيبهم عذاباً لم يره أحد ، إلا أن ينظر إلى وزرائه وقد أحاطوا به ليأمرهم ألا يقتلوا هذه السيدة التى سحرته ببيانها وثباتها وحلو حديثها :

لقد أعجبتنى ؛ دعوها تعيش .

ولكن السياسة هى السياسة وقد اقتضى الأمر أن تقتل قرة العين ، فلم يكن من الحكمة أن يخلى سبيلها ، وهى أخطر المدعاة على الدولة ودينها ، فى الوقت الذى يقتل فيه من ليس له فى الدعوة مثل شأنها ، فقادوها إلى الجلاد وأمره أن يلقى بها حية فى النار ، حتى تلقى بعض ما لقيه أصحابها من المذاب . وينظر الجلاد إليها فلا يقوى على أن يطعم هذه السيدة الفذة النار ، ولكنه لا يجد مفرّاً من أن ينفذ فيها حكم القضاة ، فإنه لا يملك غير التنفيذ ، ويحاول إلقاءها حية فلا تطاوعه يداها ، ويراها تمينه فى شجاعة وجلد وعزّة على

ما لا يستطيع أن يقدم عليه ، فيتراجع ويفكر ويدبر في لحظة لا وسعة فيها لتدبير أو تفكير ، ثم ينتفض الرجل ، وقد فقد وعيه ، على السيدة الجميلة التي امتلأ قلبه شفقة ورحمة عليها فيخنقها بيديه حتى لا تمذب في النار وحتى تصلاها جثة هامدة قد خلت من هذا الروح المتوثب الذي لم يكن يعرف غير القوة فيما يعتقد أنه الحق والذي أفدم على جلاده رافع الرأس ، متزن الخطى ، ثابت الجنان .

* * *

نشأت هذه السيدة في بيئة دينية ، فأبوها من رجال الدين وعمها من أشد شيوخ الدين حمية ومن أكثرهم سخطا على الشيخية والبايية ، ولكنها وجدت في عم ثالث لها ما شجعها على المضي في درس علوم الدين متجهة نحو المذهب الشيخى الذى كان هذا العم يميل اليه . ولم ير أبوها بدءاً من أن بهيء لها وسائل التحصيل ، فقد كان لها من الذكاء والاجتهاد ما لم يتح للسيدات في ذلك العهد ، فأرسلها إلى كبر بلاء حيث كانت مدرسة الشيخية وعلى رأسها السيد كاظم تلميذ الشيخ أحمد الأحسانى . وكان السيد كاظم يحاضر تلاميذه ويبين لهم صدق ما ذهب اليه شيخه من وجود « واسطة » بين الإمام والمؤمنين في كل زمان ، مضيفاً إلى هذا أن « الواسطة » سيظهر قريباً ، وأن ظهوره موقوت بموت السيد كاظم نفسه . وكان من بين الحضور شاب متحمس يتطلع إلى أسناذه في اقتناع وإيمان ؛ ومن وراء ستار جلست الفتاة التى رحلت من قزوين لكي تستمع إلى درس السيد وكلها آذان مصغية واعية لما يقول . أما الشاب فهو السيد حسين بشرويه (الذى لقبه صاحب الدعوة بالباب فيما بعد والذى يسمى في كتب الباوية جناب الباب أو جناب باب الباب) وأما الفتاة فهى زرّين تاج التى اشتهرت فيما بعد بقرّة العين أو جناب الطاهرة والتي كان يسميها « الباب » فاطمة في بعض كتبه .

ومات السيد كاظم وصافر تلميذه بشرويه إلى شيراز لعله يلقي « الواسطة » المنتظر ، وكتبت إليه قرّة العين أن يدشرها باسم « صاحب الظهور » وأن يحدثها عنه إذا هو لقيه . واتصل بشرويه « بالباب » وأطلعه على خطاب الفتاة التى تنشد وجوده وتنتظر « ظهوره » ، فأعجب بها وراقه ما رأى من كتابتها فجعلها من بين الحروف « الحية »

الثمانية عشر التي تكوّن (الوحدة الأولى) من المذهب البابي . وكتب بشرويه إليها ينبتها
بظهور « الباب » وبما بلغت من منزلة عنده . فأمنت بما سمعت وأصبحت من أشد دعاة
الباية حماسة .

وكانت قرّة العين في ذلك الوقت تجلس في مسجد كر بلاء من وراء ستار قد تجمع التلاميذ
أمامه فكانت تتحدث إليهم حديث الأسناذ الراحل ، ولكنها زادت عليه أن نقلت إليهم
بشرى ظهور « الواسطة » وأنه « الباب » في شيراز . وأخذت تدعو إليه والناس يستمعون
إليها ويتكاثرون يوماً بعد يوم . ويخاف الوالي من ظهور الفتنة في كر بلاء ويحاول أن
يقبض على قرّة العين ولكنها تهرب إلى بغداد فتسرع إلى بيت المفتي وتوضح له مذهبها
وتجادل عن رأيها تريد أن تدخل الرجل فيه ، وأن تظفر بالسماح لها بأن تلتقي دروسها وتبث
دعايتها في المسجد . ولكن مفتي بغداد يخاف الفتنة كما خافها والي كر بلاء فيبصر الحكومة
العثمانية بمغبة ما تدعو إليه فيأمر الوالي بإبعادها فتخرج إلى كرمانشاه . وكانت في
رحلتها تدعو الناس ، كلما استطاعت التحدث إليهم ، إلى الدين الجديد ، ودخل الكثيرون
فيه . ولكن بعضهم أشفق على الدين من دعاية سيده محجبة ، فإن هذا عمل الرجال ، فلم
يكن الإيرانيون قد ألفوا أن تقوم في وسطهم سيده تدعوهم إلى مثل هذه الدعوة ، فكتبوا
إلى « الباب » مستنكرين من قرّة العين ظهورها أمامهم وتحدثها إليهم بصوت عال .
فبعث الباب إليهم كتاباً مثنياً على جهادها مزكياً إياها مسبغاً عليها لقب « جناب الطاهرة »
فندم الشاكون على ما شكوا . ومن ذلك الوقت ازدادت نظرة البايين إليها علواً وأصبحت
السيدة الأولى في المذهب .

وبلغت همدان فلم تقنع ، كما يفعل سائر الدعاة ، بدعوة الناس . إنما رأت أن تقنع الشاه
نفسه بالدين الجديد كي تدخله فيه . وكان يجلس على العرش حينذاك محمدشاه ، وكان ساخطاً
على من يتحدث في الخروج عن مذهب الدولة الرسمي أشد السخط ، فإنه لم يكن قد استراح
بعد من إخماد حركة الإسماعيلية ، وكان يحاول أن يقضى على فتنة البابية التي بدأت في
الظهور . وسمع أبوها بما تقصد إليه فخاف عليها أن يقتلها الشاه إذا هي حدثته بمثل ما عزمتم
فبعث جماعة من أتباعه إلى همدان ليحملوها إلى بيتها في قزوین .

هناك يزوجها أبوها من ابن عمها المجتهد الذي لا يألو جهداً في محاربة البابية . وكان الولد كأبيه من أشد الناس سخطاً على بدعة « الباب » ومن يدعو إليه . فلم يكن زواج قرّة العين موفقاً ولم يدم طويلاً ، واضطرت أن تهجر بيت زوجها وأن تعود إلى بيت أبيها الذي ودّ لو شغلها البيت والولد عما هي فيه من حماسة للدعوة البابية . والحكومة في ذلك الوقت ترقب حركات قرّة العين وتلاحظ ما يكون من أمرها بعد الزواج فلما عادت إلى أبيها اشتدت الرقابة عليها وأوجست الحكومة منها خيفة ؛ ويزداد موقف السيدة سوءاً بمقتل عمها المجتهد فقد قتله جماعة من البابية الذين دخلوا الدين الجديد بدعوة منها وهي في طريقها إلى بلدها ، فتتطلع الأنظار إليها ، وتتناقل الألسن اتهامها بالاشتراك مع قتلة عمها ، ويثور الشيعة ، وبلقوبون القليل « بالشهيد الثالث » ، وتقبض الحكومة على قرّة العين ، ولكن ثبتت براءتها من دم عمها فيطلق سراحها ، ولو وجد حاكم قزوین شبهة يستند إليها للإيقاع بها لما تردد . أما الجناة فقد سيقوا إلى طهران فكانوا أول قتلى البابية .

وتغادر قرّة العين قزوین ، حيث لا يحلو العيش بعد الذي كان ، وتسافر إلى خراسان وتلقى « الباب » في بدشت فزاد به ولوعاً . وبعد قليل يقبض على « الباب » ويقتل ، وترحل هي من بلد إلى بلد حتى تحمل مقبوضاً عليها إلى طهران ، فتحبس في بيت حاكم المدينة ، ولكنها كانت تقابل من تشاء من الناس . ويأمر السلطان بأن يراها فيتحدث إليها ويعز عايه قتلها فيقول دعوها تعيش ، ولكنها تقتل بعد حين .

وكانت قرّة العين ، إلى جانب نشاطها في الدعوة البابية ، شاعرة يتناقل البايون أشعارها ويروونها في إعجاب وإكبار . ولو أن الناقد لا يستطيع أن يفغل القصص الكثير الذي حيك حول هذه السيدة وما جاء في هذا القصص من شعر ينسب إليها . ولها ديوان صغير مطبوع . وكانت تبدأ أشعارها باللغة العربية ثم تكلمها بالفارسية والعربية الغربية معاً ومن ذلك قولها :

لمعات وجهك أشرقت وشعاع طامتك اعتلى^(١)

لم لا تقول « ألتُ بربكم » فإنك ، بلى بلى

(١) احتفظنا بأبياتها العربية كما هي وترجمنا أبياتها الفارسية نقرأ

إن صدى « أَلَسْتُ » ليحيى على الأرض دوى ما نلتى من البلاء
لقد أقت على باب قلبى خيمة لجيش النىم وخدم البلاء
كفانى عشق هذا الجميل الذى حين صُلَّت عليه البلاء
قالبه نشيطا مقهقها قائلا « أنا الشهيد بكر بلاء » .

إنه حين سمع نواح موتى أعدت لى عدتى وجهازى
« فمشى إلى مهرولا وبكى على مجلجلا »

ماذا لو أضأت قلة « طور » قلبى بنار الحيرة
« فسكته ودكته متدكد كما مترزلا^(١) »

إن صدى « الصفير المهيمن » يبلغ أقدام مائدة عشقه من خيل الملائكة
وإنه ليصبح : الصلاة أيتها الفرقة البائسة .

أتستطيع صدفة من سمك الحيرة ، مثلك ، أن تأمل الفناء فى بحر الوجود ،
ألا فاجلس « كطاهرة » واستمع الحوت يردد « لا » .

ومن أشعارها :

« جذبات شوقك ألجت بسلاسل النىم والبلاء »

من حُطمت قلوبهم من عشقك وفدوك بالروح ولاء

إذا حلّى لحيبى أن يقتلى وأنا بريئة

« لقد استقام بسيفه فلقد رضيت بما رضا »

لقد زارنى هذا الجميل فى فراشى وقت السحر

« وإذا رأيت جماله طلع الصباح كأما »

إن زلقه المسكى هو الذى يذكى نافجة حُتَن

وإن سحر عينيه حطم الدين الذى حارب به الكفار عبثا

(١) إنك قويت قلبى بالمعرفة وأوحيت لى به بنشاط وحاس ثم سخطته وأخضتته بالحب ، أليس من
الحير أن تضيقه الآن كما أضاعت على قلة الطور آية « لى أنا الله » .

يا من غفلت عن الخمر والحب من أجل العابد الزاهد
ما حيلتي معك؟ وأنت ترى في خلوص نية الأصفياء، الكافر الجاحد .
إنك لا تعنى بغير زلف حبيبك وحصانك والسرّج المعرق
ولقد قضيت العمر منكراً « المطلق » غير مبالٍ بالفقير والمسكين
ليكن لك ملك الإسكندر وجاهه ولى طريق القلندرى (الدرويش) ورسمه .
فاغتم ذلك ما حلى لك ، أما أنا فهذا يكفينى ولو ساء
واجهر منزل « نحن وأنا » واخترك وطناً فى فلك الفناء
« فإذا فعلت بمثل ذا فلقد بلغت بما تشاء » .

النثر

أما النثر فقد أخذ طابعاً جديداً فى سهولته ووضوحه وانتقاء الألفاظ التى تعبر عن المعنى المقصود بغير تكلف أو التواء . ولا شك أن الكتاب الذين استخدموا الجرائد لنشر ما يكتبون قد أخذوا عن كتاب الغرب من فرنسيين وإنجليز أسلوبهم السهل وأفكارهم الجديدة عن الحرية وحق الشعب فى أن يحكم نفسه وأن تكون الحكومة منه وأن يكون مصدر السلطات . وقد شاعت هذه الآراء فى كتابات الجرائد التى كانت تصدر فى خارج إيران باللغة الفارسية .

ومن أبرز الكتاب فى هذا القرن الذى نتحدث عنه رضا قولى خان الذى كان أول مدير للجامعة ، والقائمقام الذى تحدثت عنه بين الشعراء باسم ثنائى .

رضا قولى خان :

هو أحد أفراد آل كمال أبناء الشاعر الشيخ كمال خجندى الذى عاصر « حافظ الشيرازى » والتوفى سنة ١٣٨٩ فى تبريز التى اتخذها مقاما لأسرته .

وكان جده اسمعيل كمال بك كبير أعيان چاردّه كلاته من نواحى هزار جريب ، وكان يدين بالولاء للقاجاريين قتلته زكى خان الزندى لأنه لم يخضع له . وقد روى رضا قولى خان

حادث مقتل جده غدرأ وخيانة في كتابه سفارة خوارزم (سفارتنامه خوارزم)
(ص ١٣٣ - ١٣٤ طبعة بولاق) فقال :

« وكان أهالي هذه الولاية (چارده كلاته) ميايين إلى الأسرة العلية العالية القاجارية منذ خرج بها السلطان محمد حسن خان (كسورستان) بن فتح علي خان القاجاري القوانلوي . ولما ولي كريم خان سلطنة إيران رفض أهالي چارده كلاته الخضوع لقواده لأنهم أحبوا القاجاريين وأخلصوا لهم ، وكان من جلتهم جدي محمد اسمعيل بك المشهور باسمعيل كمال الذي كان رئيس الرؤساء لهذه الجماعة ، فلم يدعن زكي خان ، ابن عم كريم خان الوكيل (وكيل خدمت) فأخذ زكي خان يضيق عليهم حتى تجمع واحد وأربعون من رؤسائهم في جهة محكمة وأخذوا يذودون عن أنفسهم فبعث اليهم برسالة وأقسم على القرآن المجيد قائلاً : تمالوا عندي فإني لن أقتل منكم أحدا . فخدعهم هذا القسم واطمأنوا وخرجوا من الحصن . فأطلق زكي خان سراح واحد منهم ، تبريراً لقسمه ، وأسر بقتل الأربعين وأن تبني من جاجهم منارة تخلد ذكر هذه الواقعة . فطلب جدي اسمعيل أن يجعل رأسه فوق الرؤوس جميعاً لأنه كبير القوم . فعزل زكي خان بوصيته . ولا تزال المنارة باقية حتى اليوم . فلما سمع « الوكيل » بهذا غضب . . . »

والتحق محمد هادي خان ، ابن اسمعيل ، بخدمة جعفر قولي خان قاجار فلما مات الأمير التحق بخدمة اغا محمد شاه وصار خازنه وكانم أسراره . وفي سنة ١٨٠٠ بينا كان محمد هادي يهيج إلى مشهد أتاه نبأ مولد ابن له فعاد إلى خراسان مسرعاً وسمى المولود رضا تيمنا باسم الإمام الذي كان يزور مشهده . وولي فتح علي شاه العرش فجعل محمد هادي ملتزماً للخراج في فارس ، ولكن الأجل لم يممه فتوفي تاركاً وراءه ولده سنة ١٨٠٢ . وانتقل الطفل اليتيم إلى طهران ثم إلى مازندران حيث عنى به بعض أقاربه في بازفروش ، وشب الطفل فرحل إلى فارس حيث أخذ يتلقى العلم على مرب فاضل هو محمد مهدي خان شهنه . فلما أتم الدرس التحق بوظيفة في شيراز مستظلاً بنفوذ والي خراسان الذي كان يرعاه ويشجعه . وكان رضا ينفق وقت فراغه في القراءة والكتابة وقرض الشعر وقد اتخذ لنفسه لقب شاكر ثم جمعه « هدايت » فيما بعد .

وجاء فتح على شاه إلى شیراز فقدم إليه رضا فأحسن استقباله وكان يعرف ما لأبائه من طيب الصلات بالبيت القاجارى وأنعم عليه بلقب أمير الشعراء وأمره بأن يحضر إلى البلاط في طهران . ولكن المرض يحول دون ذهاب الشاب الطموح إلى العاصمة . ويموت فتح على شاه وبليه على العرش حفيده محمد شاه ، فيثور عليه والى خراسان وأخوه وكان رضا قولى خان يعمل عندهما . ويحمد السلطان الثورة وتتوثق الصلة بين رضا والوالى الجديد .

وتتاح الفرصة لرضا من جديد فإن شهرته تسبقه إلى طهران وقد أوفد إليها فى عمل ديوانى ، فرحب به الوزير حاجى ميرزا آقاسى وقدمه للسلطان الذى سربه وبما له من وافر الذكاء وواسع العلم وأدب الحديث فأمره بالإقامة فى طهران ونصبه رائداً لابنه عباس ميرزا نائب السلطنة (سمى باسم جده) ، وأجزل له العطاء وخلع عليه إقطاعات من ماله الخاص ، ولقبه بلالاباشى (الرائد) . ويموت السلطان عام ١٨٤٨ فلا تكون الظروف مواتية للأمر الذى يريه ويضطر عباس ميرزا إلى الهرب من طهران وبلى الحكم ناصر الدين شاه فيعتكف رضا ويقبع فى داره منكبا على قرض الشعر والكتابة والتأليف ، ولكن عزله لا تطول فإن السلطان الجديد يعفو عنه ويراه خير من يوفد سفيراً إلى خيوه عام ١٨٥١ . وحينما عاد من سفارته عين مساعداً لوزير المعارف ومديراً لدار الفنون فظل فى منصبه هذا زهاء خمس عشرة سنة ، عين بعدها رائداً لولى العهد مظفر الدين وكان كما على آذر بيجان . وبعد سنوات من الالتحاق بهذا الأمير استأذن رضا فى العودة إلى طهران فأذن له . وهناك مرض ومات بين يدى أبناؤه فى ٣٠ يونيو ١٨٧١ .

أعماله العلمية :

ولرضا قولى خان آثار علمية وأدبية كثيرة منها ما هو نشر ومنها ما هو تأليف ثم هناك

الأشعار والرسائل :

المؤلفات :

١ - « نژاد نامه پادشاهان ایرانى نژاد » تناول فيه الملوك الإيرانيين الذين حكموا

إيران ، وقد جعله فى ثمانية عشر فصلاً وخلص فى الخاتمة أهم حوادث التاريخ الإسلامى منذ

حياة النبي عليه الصلاة والسلام حتى العصر الذي كتب فيه الكتاب . ثم ذكر المراجع التي أخذ عنها والتي ذكرها في حواشيه .

٢ — « فهرست التواريخ » وقد قدمه لناصر الدين شاه قبل سفره إلى خيوه . وقد طبع جزء منه في طهران .

٣ — « أجل التواريخ » وهو كتاب مدرسي ألفه لولى العهد الأمير مظفر الدين نخلص فيه أحوال الملوك ابتداء من الپيشداديين حتى ناصر الدين شاه .

٤ — « سفارتنامه خوارزم » وهو من أحسن ما كتب بالثر الفارسی وسنتحدث عنه على حدة .

٥ — «تتمة روضة الصفا» ، وكان ميرخوند قد ألف روضة الصفا مؤرخاً لإيران وما حولها ، فرأى رضا قولى خان أن يتم هذا الكتاب فأضاف الجزء السابع وكان غير معروف وقد جاء في أسطره الأولى ما يدل على أنه من تأليف ميرخوند وموضوعه تاريخ أبى الغازى سلطان حسين ميرزا وأبنائه وذلك حتى سنة ١٥٥٢ . وكان رضا معجبا بهذا الكتاب فآتم حوادثه حتى بداية عهد ناصر الدين شاه ، ورجع في كتابة هذه التتمة إلى مراجع لم تكن معروفة ، منها تاريخ عبد الغفار القزوينى ، وروضة الطاهرين لطاهر محمد السبزواری ، وتاريخ الصفوية لميرزا صادق الأصفهانی خازن مكتبة الشاه عباس . ورجع في كلامه عن عهد الزند والسنوات الأولى من عهد فتح على شاه إلى كتاب ميرزا صادق . ومن ناحية أخرى كان في متناول يده وهو يكتب تاريخ إيران الحديث منذ بداية القرن التاسع عشر الوثائق الرسمية التي تبين صلة إيران ببعض دول أوروبا وآسيا حينذاك . وقد سطر النص الكامل لبعض هذه الوثائق وعلق عليها . وهذا الكتاب الذى صيغ في أسلوب سهل رقيق يمد القارى بمعلومات واسعة عن الجغرافية والتراجم والآداب . وقد قدمه لناصر الدين شاه في عشرة أجزاء ، سبعة لميرخوند وثلاثة من تأليفه ؛ وقد طبع في مجلدين كبيرين بين سنتي ١٨٥٣ — ١٨٥٦ في طهران .

٦ — « رياض العارفين » في تراجم الشعراء المتصوفة ، وقد ذكر نبذاً منه في سفارتنامه خوارزم .

٧ — « مجمع الفصحا » وهو من أهم مؤلفات رضا . وأهميته الخاصة ترجع إلى روايته للنصوص الشعرية وللتفصيلات الكثيرة التي أفادها من مؤلفات تاريخية وكتب تراجم من الأهمية بمكان كبير . ويحوى الكتاب مقدمة في تاريخ الشعر الإيراني الذي لم يندثر بعد الفتح العربي ، بل ظهرت بوادره في خراسان وبلغ درجة لا بأس بها أيام الخليفة المأمون . ويقول إنه حدث في سنة ١٩٨ (٨١٣) أن قدم السيد أبو العباس المروزي إلى الخليفة قصيدة من الشعر الفارسي بها كلمات عربية فأعجب بها الخليفة وأمر للشاعر بصلة ألف دينار . ويتحدث رضا عن الشعر الفارسي أيام الطاهريين والصفاريين والسامانيين والغزنويين والديلميين ثم السلاجقة ، وقد جمعه أربعة أركان : الأول في الشعراء من الملوك والأمراء وخص صفحاته الأولى بأشعار ناصر الدين شاه ؛ والثاني في الشعراء من سنة ١٧٣ (٧٨٩) حتى ٨٠٠ (١٣٩٧) ؛ والثالث في الشعراء المتوسطين ؛ والرابع في الشعراء المعاصرين . وامتاز الكتاب برجوع صاحبه إلى كتب نادرة وبمعلومات لم يسبقه إليها أحد .

على أن الرغبة في الإحاطة بكل شيء جعلته يتورط أحيانا في أخطاء كان يستطيع أن يتفادها . وقد عاب عليه القزويني (محمد) في حواشي « چهار مقاله » عدة عيوب . منها أنه ذكر أن البهرامى الشاعر كان معاصراً لسبكتكين ولكنه حدد وفاته في سنة ٥٠٠ (١١٠٦) وهو سهو واضح لأن سبكتكين مات سنة ٣٨٧ (٩٩٧)^(١) . ومنها أنه غير ، في قصيدة للأزرقى ، اسم طغانشاه بن محمد (الپ ارسلان) بطغانشاه بن مؤيد لتكون القصيدة في مدح هذا الأخير^(٢) ؛ ذلك لأن معظم المؤرخين يجهلون طغانشاه بن الپ ارسلان محمد بن جفرى بيك الذى كان حاكماً لخراسان أيام الپ ارسلان وهو الذى مدحه الأزرقى . ولم يُعن كتاب التذكار بتحقيق شخصية هذا الحاكم وظنوا أنه هو طغانشاه ابن مؤيد آى ابه (٥٦٩ — ٥٨١ ، ١١٧٣ — ١١٨٥) ، ومن هؤلاء رضا قولى خان الذى لم يكتف بالخلط بين الأميرين بل صحح الاسم كي يستقيم مدح الأزرقى مع ما ذهب إليه بغير تحقيق .

وعند ما تحدث عن عثمان الخنارى الشاعر الذى مدح ملكا اسمه عضد الدولة لم يتحقق

(١) ج ١ ص ١٧٣

(٢) ج ١ ص ١٤٥ والحواشى على چهار مقاله ص ١٧٢ — ١٧٣

منه رضا خان فذهب إلى أنه عضد الدولة الديلمي الذي توفي سنة ٣٧٢/٩٨٢م ما يقرب من ثمانين ومائة سنة قبل وفاة المختارى ، وقد وضع صاحب مجمع الفصحا اسم مغيث الدين فنا خسرو ، وهو اسم عضد الدولة الديلمي ، مكان معين الدين بن خسرو الذي مدحه المختارى . على أن هذه المآخذ لا تنتقص من قدر الكتاب والجهد الذى بذله المؤلف لإحياء الأدب الإيرانى الإسلامى ، من نشأته حتى الزمن الذى كتب فيه . وقد طبع الكتاب فى جزئين فى طهران سنة ١٨٧٨ .

٨ — « فرهنك انجمن آراى ناصرى » وهو آخر عمل علمى اشتغل به رضا ، وكان قد قرأ قبل تأليف كتابيه مجمع الفصحا ورياض العارفين دواوين الشعراء ، القدماء والمحدثين ، وأخذ منهم ما يقرب من مائة ألف بيت ذكرها فى كتابيه ، ورجع لكثير من المعاجم لفهم بعض هذه الأبيات فوجد فى هذه المعاجم من النقص ما حمله على عمل معجمه هذا الذى رأى ألا يذكر فيه غير الكلمات الفارسية ، ذاكراً معانيها مؤيدة بما يستشهد به من الشعر الموثوق به . وقد قدم لكتابه بذكر ما كان من عمل السابقين عليه فى هذا المضمار . وبعد ذلك بحث عن الكلمات الفارسية للمعربة أو التى أخذها العرب وعن المصطلحات الأجنبية التى دخلت اللغة ، وماطراً على الكلمات الفارسية والعربية من التغيير . ثم ذكر العبارات التى أساء فهمها علماء اللغة فعرّفوها تعريفاً ناقصاً . وكتب فصلاً مفصلاً عن الأجرومية الفارسية . وقد قسم المعجم إلى قسمين الأول يتناول الأسماء والصفات والثانى شرح المصطلحات تشبيهاً ومجازاً وأيد المعنى الذى ذهب إليه بأبيات مختارة من دواوين الشعراء المتقدمين .

الأشعار :

وله أشعار كثيرة منها ديوانه ويحوى أكثر من خمسين ألف بيت ، ومن أشعاره بعض رسائل دينية مثل بحر الحقائق الذى قلده فيه سنائى ، ومنهاج الهداية (هدايت نامه) وأنوار الولاية اللذين قلده فيهما مخزن الأسرار لنظامى ، ثم مفتاح الكنوز ومعراج البلاغة .

ونظم كتاباً سماه «كلستان إرم» أو «بكتاش نامه» وهو نظم في أسلوب سهل
يحكى قصة عشق بكتاش بن حارث لربيعة بنت كعب والنهاية الحزينة لهذين العاشقين .

الفسر :

وفي أثناء إقامته الطويلة في شيراز حصل على مخطوط قديم به جزء من أشعار منوچهرى
المتوفى سنة ١٠٢٩/٤٢٠ هـ في البحث عن بقية أشعار هذا الشاعر وهو في فارس وطهران
وأعد للطبع ديوانه أو بالأحرى ألفين وثلاثمائة بيت من شعره . وقد طبع في طهران بعد وفاة
رضا . كما نشر «قابوس نامه» للأمير عنصر المعالى كى كاوس بن اسفنديار .

والحقيقة أن إيران لم تشهد في الحقبة التي نتحدث عنها عالماً أديباً خصص للبحث من الوقت
والجهد مثل رضا قولى خان . وقد كان من التوفيق أن يكون على رأس أول جامعة أسست في
إيران . فإن ثقافته الواسعة ورغبته في الإصلاح عن طريق الثقافة قد ساعدتاه على ألا يدخر
وسعاً في تشجيع الناشئين من الأدباء وبعث المتفوقين من الشبان إلى أوروبا للتعلم في جامعاتها .

سفار تنامه خوارزم :

وإذا أردنا أن نتخذ مثلاً للكتابة في القرن التاسع عشر نجد أن كتاب رضا قولى خان
«سفار تنامه خوارزم» خير مثل على النثر الفنى الفارسي حينذاك .

كانت خوارزم تابعة لإيران إلى حد ما ، وكان ملوكها يبعثون الهدايا ويدينون بالولاء
للملوك القاجاريين ، وكان محمد أمين خان ، والى خوارزم ، قد أراد التقرب من محمد شاه
القاجارى فبعث إليه بأمير من البيت المالك ، كان التركان قد أسروه ، وأرسل معه رسولا من
خيومه يحمل الهدايا وخطاباً ودياً للشاه حسب ما جرى به العرف بين البلدين . وسر محمد شاه
لعودة قريبه الأسير ، ورحب بالهدايا التي بعثها إليه والى خيومه وابتهج بخطابه إليه ، ثم رد
عليه رداً جميلاً وخلع عليه لقب ملك خوارزم (خوارزمشاه) . ومات محمد شاه وخلفه ناصر
الدين شاه فلم يرسل ملك خوارزم سفيره مهنئاً السلطان الجديد بولايته ، ولكنه بعد قليل
علم بمقتل حسن خان سالار أحد زعماء ثورة خراسان ، فخشى أن يسترسل في غيئه فيلحق

ما لقي صاحبه ، فبعث بضابطه آتانياز محرم يهدى ناصر الدين جباد الخليل والصقور . ورأى رجال السلطان أن الرسالة التي يحملها الرسول ليست معبرة عن صادق الولاء . ورأى الوزراء أن يوفدوا إلى خيوه سفيرا مثقفا ذا مركز ممتاز لكي يعبر للملكها عن استياء الحكومة الإيرانية من رسالته ، ولكي يستميل هذا الملك إلى إيران ويعيد الصلة بينه وبين الشاه إلى ما كانت عليه من ولاء وود وينتهز فرصة وجوده فيعمل على إطلاق سراح الرعايا الإيرانيين الذين كان التركان قد اختطفوهم من خراسان ومازندران و باعوهم كما يباع العبيد في خيوه . واختارت الحكومة رضا قولى خان ؛ وأعطوه ألفى تومان^(١) لنفقات رحلته ، وهديّة للملك ، بندقية وغدارتين على أن يقدمهما كهديّة شخصية .

وأدى رضا قولى خان سفارته وعاد فرفع إلى ناصر الدين شاه تقريرا عنها هو هذا الكتاب الذى نتحدث عنه ، سفارتنامه خوارزم .

وقد بدأ رضا كتابه بمدح السلطان ثم بيّن كيف استعد لرحلته وأقام خارج بيته لإعداد ما يحتاج إليه ، وفقاً للرسم عندهم إذا قصدوا رحلة بعيدة ، ووصف مشاهد جبال البرز و دماوند والولاية التى سميت به إلى أن حدثنا عن لقائه لوالى خيوه خوارزمشاه ؛ محمد أمين خان :

ذكر مهروانه محرم أمين شاه والحديث منه :

« وقد ترمى إلى سمع الخان ما طلبتُ عن أمرى الإيرانيين فبعث فى طلب آتانياز محرم ، رسوله الذى عاد معى من دار الخلافة (طهران) ، وكان فى ذلك الوقت قائما على معاملات كهنه أوز كنج . فجاء إلى خيوه ، وجعله ثالثنا ، وأخذ يستوضحه ما أشكل عليه . وبعد عدة أيام من مجئ محرم بعث فى طابى محمداً لم أخبر به ، وكان العلماء والأمرء قد حضروا فى أبهى زينة ، وكنت مضطرب المزاج ولم يكن فى وسعى أن أذهب إلى هذا الجمع الحافل ، فاعتذرت بعلتى وقلت إننى لا أقدر على تلبية الدعوة فقد تجرعت مسهلاً ، وليس فى طاقتى العبور فضلاً عن الحضور .

فجاءنى رسول آخر يقول إن خان الحضرة يعنى خوارزمشاه ينتظر حضوركم ، وإن أعيان الملكة يرمقون طريقكم . فقلت إنى غير مستعد وقد كان عليكم إخبارى بالأمس

(١) عملة فارسية .

إذا كنتم تريدون دعوتي اليوم ، ولو علمت لما تجرعت المسهل فإني اليوم أجدني غير قادر على الخروج وقد بدأت أشعر بأثر الدواء .

والخلاصة أن المجلس قد انفض ، وأنهم حملوا عذري على الكبرياء و « التفرعن » والتجمل ورموني بالجسارة وإساءة الأدب ، لأن حكم الملك في هذه الولاية بمنزلة الوحي ، لا يخالف . ولكنهم سمحوا لي ، حين يتحسن حالي ويصح مزاجي ، أن ألتبس المقابلة .

وبعد بضعة أيام ، وكان الخان في حديقة انكور نيك المشهورة بانكريك^(١) ، التمت المقابلة وصحبت آتانا نياز محرم . فلما دخلت حيت الخان فحياي . وبدأ يسأل باللغة التركية وكان معه ترجمان ديلمى لأنه تظاهر بعدم فهم الفارسية ، فأنكرت معرفتي التركية لينقل الوسيط الحديث بيننا . فسألني عن أيام اعتكافي وكيف أمضيتها . فقلت أمضيتها متراخيا محمواً ، ولم يكن لدى طبيب يداويني والمدينة التي ليس بها طبيب هي عند الحكماء بعيدة عن التمدن ولا تروق لهم . قال فكيف برئت بعد سقم ؟ قلت بما دبرت لنفسى من دواء وافق قبول القضاء . قال : أفى إيران وطهران كثرة من الأطباء ؟ قلت نعم ، في كل شارع ومحلة عيادات يترقبها أهل البلاد والغرباء فيصحون بعد مرض . ويتقاضى معظم أطباء هذه العيادات أجورهم من السلطان . ثم إن في كل فوج من أفواج الجيش القاهر طبيبا ، يصاحب الفوج في السفر والحضر . وهناك أطباء يعينهم الديوان الأعلى مهمتهم تسجيل أسماء الأطفال وإجراء ما يلزمهم لدفع مرض الجدري عنهم ، حتى لا يصابوا بالعمى . فتمجب الخان من روايتي وتمخبر من انتظام الأمور في إيران . قلت وأفواج الجيش مائة ألف لكل فوج طبيب . ومن هؤلاء الأطباء ميرزا على نقى الذى كان طبيب فوج الأفسار ، وهو اليوم في خيوه لا يجد لنفسه عملا .

وهكذا استنار رضا قولى خان فضول خوارزمشاه فسأله عن أفواج جيش إيران ، فأجابه السفير إجابة مفصلة حيرته . فقال الخان : لسنا بجاهلين أحوال إيران وسلاطين قاجار وقبزل باش ، ونحن نعرف أحوال بلادكم أيام فتح على شاه ومحمد شاه رحمهما الله . فأخذ رضا يبين له حالة الجيوش أيام هذين السلطانين وما هي عليه أيام ناصر الدين شاه من كثرة العدد والمدد الحديثة وحسن النظام والتناسق بين الضباط على مختلف رتبهم وبين الجند إلى أن قال :

(١) أى العنب الطيب .

« وقد علم رسولكم آتانا نياز محرم بمض ما ذكرت ورأى ميدان المسكر السلطاني الذي يحوى طابقين في كل طابق أربعمائة غرفة لسكن الجنود ، وأمام كل غرفة مدفعان مجهزان بأدواتهما من عمادات وبارود وذخيرة أخرى ، فإذا كنت لا تعتقد في صحة ما أقول فسله يبين لك الصحيح من السقيم .

« وهناك اثنا عشر ألف رجل ، على عدد الأئمة الكرام ، يقيمون في معسكرهم بدار الخلافة ويتدرجون صباح مساء ، ويتقدم رجال القصر أجورهم كل شهر . ثم إنهم يسرحون بعد مدة ويحل محلهم غيرهم . أما هم فيعودون إلى بلادهم ويشغلون بما يهيباً لهم من أعمال . وقد كان الخان يسمع حديث السفير « وهو يتفكر ويتدبر ، وكان من فرط غيرته ونهاية حيرته يرفع يديه إلى صدره ويصبح ثلاث مرات « يا حافظ » . لقد ألباه الفزع والجزع إلى الله الحفيظ » .

ويرفع الخان رأسه ويسأل السفير عن عمر السلطان فيقول السفير إنه ولد في السادس من صفر سنة ١٢٤٦ (٢٨ يوليو ١٨٣٠) ، فهو في الثانية والعشرين ، وإن المنجمين قد تنبأوا بأنه سيحكم أربعين سنة محاطاً « بالحشمة » والجلال . فيقول الخان إن السلطان إذا شاب جامل . فيجيب السفير بأنه شاب كحظه السعيد وإنه ناضج الروح وله تجارب الشيخ الكامل ، وإنه لبس جاهلاً ، كغيره من الملوك ، فهو عالم بالفطرة وعقله هبة من الله . وهو من ناحية أخرى قد تحلى بالسكامل صورة ومعنى وتحلى عن النقص ظاهراً وباطناً . وهو منذ أتى إليه بمبء الملك قد صرف الهمة إلى الطاعة والعبادة فهو يتضرع إلى ربه ويخشع . وفي كل ليلة ، بعد تلاوة الأوراد والأذكار ، توقد في غرفته الشموع المنصوبة على عمد مطعمة بالجواهر ، فليحترق بها أعداؤه كما يحترق الفراش حول النار ، وتوضع أمامه كتب الأخبار والأحاديث ودفاتر القصص والنواريخ . فينفذ بصره إليها ويتأمل فيها ، ويفيد من سير الأبرار حكمة وعلماً ؛ وهو يشتغل بدراسة أحوال الأقاليم السبعة فهو يعرف عن ديار الفرنج والروم والروس والهند وتوران أكثر مما يعرف أهل هذه البلاد . وقد كان يدل سفيره قبل سفره على

الطريق الذي يسلكه مينا له المنازل التي فيها الماء الحلو والأخرى التي لا يشرب ماؤها ، فلما اجتاز السفير الطريق رأى صحة حديث السلطان .

وكان الخان يتأثر بهذا الحديث ويصبح : التوبة التوبة ، والحفيظ الحفيظ .

وبعد أن يتحدث رضا عن ناصر الدين شاه وبأنه أشرف ملوك الأرض طرا ، وأنه أكثر أصالة ممن تقدمه من آل قاجار ، لأنه ملكي النسب من ناحيتي أمه وأبيه ، ينتقل الحديث إلى المداورة بين خوارزمشاه والسلطان .

قال ملك خيوه إنه بعث آتانا نياز محرم سفيراً إلى طهران كي يحمل إلى السلطان إخلاصه وصداقته ؛ وكذلك بعث السلطان رضا قولي إلى خوارزم سفيراً ؛ وفي هذه الأثناء يرى خوارزمشاه جيوش إيران تسير نحو سرخس واستراباد وهذا لا يتفق والشعور بالصدقة بين حاكبين .

فأجاب رضا بأن سير هذا الجيش بهدف إلى إقرار الأمن عند الحدود وإلى رفع غائلة التركان . « وهذه التعبئة لا تمس بلادك ولا من يخضع لك من القبائل » . وأما بلوغ النواب حسام السلطنة سرخس « فإنه واضح أن هذا البلد لا يدين لك بالولاء ، مثله كمثل سرو ، وأنها أصبحت بؤرة للفتن . ولو عُرف أن أهل سرخس من رعاياك لما سار إليهم أحد . ومن ناحية أخرى فإن هذه الحملة لم تُسَيَّر بأمر وزراء إيران ، إنما أقدم عليها حسام السلطنة بالمحاح خواقين خراسان . والدليل على أن الشاهنشاه لا يعرف أمر هذه الحملة أنكم حين عرضتم سحب جنديكم إذا انسحب عسكر حسام السلطنة ، قبل هذا أن ينسحب . ولو كان يستمد الأمر في هذه الغزوة من السلطان ، « روحنا فداء » ، لما تراجع بهذه السهولة .

ثم يقول رضا : وحين سار حسام السلطنة نحو سرخس لم ينم أهل خوارزم ليلهم ... ولو لم يكن هناك مراعاة للمصافاة والصدقة من قبل السلطان « روحنا فداء » لدخل الجند سرخس بإشارة واحدة .. ولجعلوا عاليها سافلها . ثم يحدث الخان عن الوضع السياسي لخوارزم فهي من ناحية عرضة لغارات أهالي بخارا ومرو وهراة ، وهي من ناحية أخرى عرضة لغارات الروس . ثم يذهب إلى أن حدود خوارزم قريبة من استراباد وبقية الحدود تلتقي عند دره كز وخراسان ؛ وينصح الخان أن يتفكر فيما هو أجدي عليه . فمن الذي يستطيع عون

إذا أعوزه المدد؟ ويقول له إذا رأيت حكومة أجنبية تعرض عليك صداقتها فاعلم أنها تقدم إليك ما يتفق مع مصلحتها . والدولة التي هي أقرب إليك صديقة لأمر بخارا وهو عدوك ، وأقرب دولة إلى بخارا تتوحد إليك وهي لا ترجو غير مصلحتها وضرب المسلمين بعضهم ببعض . مصراع .

من أى طرف يكون القتل (قتل الكفار) فالفائدة للإسلام

« إن من ييديم الأمر في بلدك لا يفكرون في واجبه ، ولا ينظرون إلى خير الدولة ، وهم يبذرون بين المسلمين الشقاق والنفاق حتى أصبحوا في عين المسلمين لا يساوون حبة شعير . إن أهل إيران يسافرون إلى كل أمة ، من ترك وروس وهند وفرنج ، يذهبون ويعيشون أعزاء ويعودون بالعمافية ، إلا في بلادكم فإنهم ينهبون ويفتح رجالك أبواب الأيذاء والإجرام في وجوه أهل القبلة . وذلك مع أن لنا قرآنا واحدا ونبوة واحدة ورسولا واحدا وإلهما واحدا ، ولم يأت في آية أو حديث شيء مما تفعلون » .

فأجاب الخان بأن علماء الدين في بلده يقولون إن سب الشيخين (أبي بكر وعمر) كفر، وجزاء الكافر معلوم . وقد ابتدع أهل إيران البدع وسبوا أكابر الصحابة وأمنوم، ولذا فهم ، بفتوى المفتين في بخارا وخوارزم ، روانض كفر ، فلزم أخذ أموالهم ونهبها ثم لزم أسرم .

فأجاب رضا قولي :

إنني من رجال بلاط ملك إيران وأحدث بلسان الدولة . إنما تكون الأسئلة والأجوبة في أمور الدين مع علماء المذهب ، وليس لي دراية كبيرة بهذا البحث . فإذا كان القصد تحقيق المذهب والبحث فيه لوجب بعث أحد القضاة أو المفتين . والواقع أن الحديث في هذا الموضوع قد دام سنوات وتبودلت فيه ، بين الطرفين ، الرسائل والمقالات والكتب والخطابات ولم ينتج هذا كله شيئا . مصراع .

هذا خيط بعيد الطرف

وبعد أن تحدث رضا عن مذهب الفرس أيام الخلفاء وأنهم كانوا من أهل السنة والجماعة ، وذكر الحرب بين علي ومعاوية ثم مقتل الحسين وقال إن هذا أرضع من

الشمس ، وبعد أن تحدث عن العباسيين وكيف اضطهدوا أئمة الهدى علنا وخفية قل :
« وإذا فقد كان بين الخلفاء خلاف ، ولم يكن العباسيون متفقين مع الأمويين في
الرأى ، ومع هذا فإن أهل السنة والجماعة قد اعترفوا بهم جميعاً وبأنهم أولو الأمر
وخلفاء الله ورسوله .

وأما السب والرفض فقد صدر أولاً عن معاوية وبنى أمية في حق حضرة أمير المؤمنين
أسد الله الغالب ، فقد سبوه ولعنوه من فوق المنابر سبعين سنة ، حتى منع عمر بن عبد العزيز
هذا السب . ثم كثرت المذاهب كما هو موضح في الملل والنحل . ظهر الخوارج والعترة
والأشعرية وطائفة الزيدية والإسماعيلية والأفطحية . ووجد الإمامية أن « الأمور خراب
وأن البحار مراب » فعملوا بالحديث : « مثل أهل بيتي كمثل سفينة نوح من ركبها نجا
ومن تخلف عنها غرق » . فركبوا سفينة الولاء لأهل البيت كي ينجوا من طوفان الخلاف .
أما قصة الرفض والسب فكانت في قديم الأيام وخاصة أيام الدولة الصفوية ، فقد
برزت وظهرت حتى حرّمها نادر شاه الأفشاري فزالت هذه البدعة من بين المسلمين . وجاء
من بعده السلاطين الألوارية (الزند) ولم يكن لديهم علم بما يدور ، فعالى جهلاء العلماء في
هذا الأمر . ومع ما كان يديه حضرة الخلقان صاحب القرآن نور الله مرقدته (فتح على شاه)
من حب علماء الدين وتشجيعهم فإنه منع بعض قواعد الرفض .
وجاء محمد شاه طاب ثراه فأمر أمراً نافذاً بتجريمه .

وفي عهد هذا السلطان حامى الإسلام (ناصر الدين شاه) لا يجرؤ أحد أن يقول مثل
هذا القول الواهي وإذا أطلق أحد لسانه بالتشنيع على الخلفاء فإن رأسه يقطع .
قال الخان وقد أعجبت سيرة آل قاجار في هذا الموضوع : « إذا كان الأمر كذلك
فهو خير » .

وبسأل الخان فيقول : إن سبب عداوتنا لأهالي إيران هو اتهامنا لهم بالرفض والسب فما
سبب عداة القزلباش لنا ؟ فأجاب رضا : إنه كما قيل لكم إن أغلب الإيرانيين رافضة
فأخذتموهم أعداء لكم فكذلك قيل لأهالي إيران إنكم وأهل ولايتكم لا تحبون أمير
المؤمنين أسد الله الغالب على بن أبي طالب وأولاده الأجداد .

فقال الخان : نموذ بالله أن نكره عليا ، إنا نقرّ بأنه رابع الخلفاء وأعلمهم ، ولو أخذوا

بمشورته وعملوا برأيه لما نشب بينهم خلاف . وإن ذكر الخلافة والخلفاء مشروح بالتفصيل في روضة الصفا .

فانتهر السفير هذه الفرصة ليشرح المذهب الديني في إيران ومذاهب الغلاة التي بها وهي المذاهب التي لا يقرها أهل الرأي في الدولة ، ولكنهم يعضون المين عما تقول به لأنهم يستغلون غلو أهلها في التشيع لئلي وآله وبفضهم الشديد لأهل السنة فتتخذ الدولة منهم جنودها كلما دعا الأمر لقتل الترك أو التركان السنيين ، قال :

لقد ولدتُ في إقليم فارس وشببت فيه ، وتعلمت في سواحلها وبنادره وبها نحو ثلاثين ألف نفس على مذهب الشافعي ، وكذلك يكثر أهل السنة والجماعة في لارستان وسائر أنحاء فارس ، وهم يعيشون في سلم وهدوء تامين ، وقد عشت بينهم على عقيدتي وما أحببت بحث موضوع المذاهب .

وفي إيران طائفة تسمى الإمامية ، وهي على حقٍ فيما تذهب إليه ، ويفهم علماءها علماء أهل السنة كما تناظروا . وهم يقولون إن النبي ، وهو في مرض الموت ، طلب دواة وقرطاسا ليكتب وصيته حتى لا تضل الأمة من بعده ، فدعه عمر بن الخطاب منعاً صريحاً . وهذا أمر مشهور . ثم إنهم يقولون إذا كان عمر مخلصاً لرسول الله (صام) فلماذا تركه ميتاً وجري إلى سبيعة بنى ساعدة وأخذ يحمل الناس على اختياره خليفة . وأكثر من هذا فإن الخلافة إذا كانت بأوصية فإن الرسول (صام) قد أوصى بعلي من بعده في غدیرخم ، فلماذا لم يتكوه منها ؛ وإذا كانت بإجماع العامة فلماذا عدل أبو بكر عن الإجماع وأوصى بأن يكون عمر خليفة من بعده ؛ وإذا كانت الوصية هي الوسيلة للخلافة فلماذا عدل عمر عن الوصية وعن الإجماع وأمر بالشورى في أمر من بولى بعده ؟ وفي إيران مثل مشهور يقول باستعانة وجود جبرئيل على سقف واحد ؛ وهكذا تجدد على هذا السقف أهواء كثيرة .

وطائفة الإمامية هذه ترى النجاة في حب الرسول وآله ويقولون بالأئمة الإثني عشر ويسيرون وفق آيات القرآن والحديث وفهم زهاد وعباد وعلماء وفضلاء كثيرون .

فلما سمع الخان هذا البيان تفكر قليلاً ثم قال : إنهم يوجبون بعلي .

قلتُ :

وفي إيران طائفة غلوا في الولاء لئلي وفضلوه على الخلفاء الثلاثة ويسمون بالفضلية .

وطائفة أخرى جعلت عليا في مرتبة واحدة مع الرسول (صلم) ولا تفرق بينهما إلا بما بين النبوة والولاية من فرق .

فقال الخان : إن اعتقادهم عجيب .

قلت :

وطائفة أخرى تجهل من عليّ إلهما وتسميه موجد الكل .

فغضب خان خوارزم ، وقال : نعوذ بالله من هذا الاعتقاد الفاسد ، إن هذه الطائفة كافرة ، فلماذا لا يقضى ملك الإسلام بقتلها .

قلت :

إنهم لا يجيرون بعقيدتهم وهم يوافقون المسلمين في الظاهر . ثم إن لهم أتباعا في سائر البلاد . وهم في إيران كثيرون فهم أكثر من مائة ألف أسرة وغالبهم يشتغل في الديوان وعند السلطان وبعضهم فرسان ، ومنهم عشرون أو ثلاثون ألفا موظفون في الدولة ، وآخرون يعملون في الجيش كثرة . فكلما أشار السلطان ذو الجاه بأن تحارب هذه الطائفة أهل الروم (الترك) أو أهل بخارا أو التركان ، فإنهم يقدمون بشوق ما بعده شوق ، وعداوة لا توصف ، على حرب أهل السنة ، لأنهم يرون في قتلهم ثوابا عظيما ويستحلون دماءهم ، وذلك من غير أن يتقدم السلطان أجراً أو يجرى عليهم شيئا .

فثارت من ذلك أوهام الخان واضطرب خاطره فوضع يده على صدره في غير وعى وأخذ يكرر : التوبة التوبة والحفيظ الحفيظ ، وقال :

لماذا لا يأمر سلطان إيران بإهلاك هؤلاء القوم وإبادتهم ؟

قلت : إن قتل مائة ألف من رعاياه وخدمه ليس أسرا يسيرا . وهو يبعث في البلاد فتنة عظيمة . ثم قلت :

وفي إيران أناس على كل الملل ، من النصارى واليهود والمجوس والهنود . ولهم في كل مدينة شوارعهم وبيوتهم ومعابدهم وكنائسهم ، وهم يعملون بتعاليم أديانهم ويدفعون الجزية . ولهذا إذا سمعتم أن في إيران جماعة من الرافضة فاعلموا أن أهل إيران جميعا ليسوا من هذه الفرقة ، ففي إيران كثير من كل الملل والنحل . بيت

ليس في العلوق قتل الناس ولا في المسكنة القضاء على العالم .
ثم أخذ الخان يسأل السفير عن مذهب الخوارج ، واستطرد السفير فحدثه عن الخلفاء
الإسماعيلية في مصر والمغرب ومحاربتهم للعباسيين ثم حدثه عن ملاحدة قوهستان وعن
الباوية والقضاء عليهم .

وقد انتهى هذا الحديث بإعجاب الخان بالسفير وودّ لو استطاع أن يبقيه في بلاطه لتنفيذ
منه البلاد في أمور الدين والدنيا . ثم أخذ يسأله عن طرق خوارزم وعن الأولياء الذين زار
قبورهم ، وكان رضا يجيبه ويقرأ عليه بعض أشعار للشبّخ نجم الدين كبرى الذي زار قبره .
فقال الخان إنه لم يأت إلى خيوة سفير كهذا الرجل ... ثم شكره لأنه أزال ما علق بنفسه
من سوء الظن بالمذهب الذي يتبعه الإيرانيون وسأله أن يتحدث في بلاده بما يرفع الشبهة في
أهل خوارزم « قل لهم إنا مسلمون نسير على جادة السنة والجماعة ، وأن الفلو الذي هو من
جملة البدع التي لا نفع فيها محرّم في ولايتنا وإنا لا نعاقب أو نقتل النفس بغير إجازة الشرع
وفتوى القاضى ، وإنا مخلصون لأمير المؤمنين على كرم الله وجهه ولأولاده » .

وانتقل الحديث بين الخان والسفير عن أسر الإيرانيين فتصل الخان من تبعته ... ثم
طلب السفير أن يعيد الخان هؤلاء الأسرى إلى إيران كهدية منه إلى السلطان . فإن
الاصطبلات الساطانية مملوءة بأحسن الخيول التركية ، وكذلك حوت خزائنه كل ما يشتهي ،
فأهداه رعاياه الأسرى خير ما يهدى إليه . وحين سأل الخان عن طريقة استرداد هؤلاء
الأسرى من أشتروم من الفلاحين (البخارا) أجابه السفير بأن يشتريهم بنقد من عنده
وأن لا ينظر إلى نفع أو ضرر فإن السلطان قادر إذا أزم الخان أمر أن يعينه بمشرة آلاف
أو عشرين أو ثلاثين ألفاً من جنده ، وأنه قادر على أن يخضع مدينة مرو وينزل له عنها .
« وكذلك طلبتم أن ينسحب النواب حسام السلطنة عن سرخس ففعل ، وما هرع اليكم
أهل سرخس إلا لخشيتهم جنود إيران » .

فاقتنع الخان بما قال السفير ووعد بأن يزداد صلة بال قاجار فقد جاملوه في سرخس .
وأجاب السفير إلى طلبه .

وقد ذكر رضا قولى خان فى كتابه ما لقيه فى الطريق ، فوصف المزارات التى زارها وذكر أشعار أصحابها إذا كانوا شعراء فمن ذلك وصفه لقبر الشيخ نجم الدين كبرى ، ولقبر فخر الدين أبى عبد الله القرشى التميمى البكرى ، وقد ذكر بعض رباعيات لهما . وذكر كيفية تولية الخان عرش بلاده ، فإه حين يموت الخان يحضر القضاة والعلماء والأسراء والوزراء للتعزية ثم يختارون ابنه الأرشد لبلبى العرش ، فيظهر هذا الاجتناب والاستثناء فيلحون عليه حتى يقبل ما داموا محببين على اختياره وخاضعين لأمره حتى لو كان باقتتل . ثم يأتون ببساط أبيض وبضعونه فى وسطه ثم يرفعونه وقد أمسكوا بأطرافه وبلقون الخان الجديد على العرش بقوة ، فيقع على وجهه أو تسقط عمامته . وحينئذ يقطع كل منهم بسكين معه قطعة من هذا البساط ويأخذها معه .

ويتحدث عن الجيش وطريقة جمعه وصلة الخان بملازميه ، ويقول إن الرقيق من الإيرانيين فى خوارزم أكثر من أهلها ، وقد رأى عند أحد الأذربكيين خمسين رقيقا من الإيرانيين . قال ولو وجد هؤلاء تأييداً من حكومة إيران لثاروا ضد ساداتهم .
ويصف ما لقيه من مصاعب فى الطريق :

« وكما نسمع فى مسيرنا بشورة يموت^(١) وقيامهم بشورة على حاكم استراباد ، وشاع وتواتر أنهم ينتظروننا ليمنعونا من السفر ويأسرونا ، ولذا رأيت من الخزم أن لا أبعث أماننا رسولا إلى بكر بكى ، فإن التركان سيعلمون من ذلك يوم مجئنا فيسرعون إلينا . وبعد أن اقتربنا من نهر إترك ، حيث يسكن غالب التراكمة ، وهم يعيشون على قطع الطريق والغارات ، تارلنا المشاء ورأينا أنه لا يجدر بنا أن ننام . فلما انقضى من الليل ساعتان أو ثلاث عزمت على عبر نهر إترك مع رفاقي ومن صاحبونى فى السفر ، وذلك بغية الوصول إلى جرجان واستراباد . فلم نكد نسير فى الطريق قليلا حتى ظهرت آثار سنابك الخليل كثيرة ، فدخلت على أنهم جاءوا من حولنا ومضوا . فبدلنا لكل منا ظننا فقال ما أراد . وخطر لى من القرائن الخارجية والدلائل العقلية والسمعية المتواترة أن تراكمة إترك الثابرين قد خال لهم أن بأسرونى ، فوجب أن نسير فى طريق غير مألوف من حول منازل هذه الطائفة . فلما بلغنا نهر إترك كانت ضوضاء أهل القافلة من بخارى وخيوقي (نسبة إلى

(١) اسم قبيلة .

خيوق أو خيوه) وكابلي وهدير الجبل وصهيل الخيل وغلغلة الحضور ، كل هذا كان له في الجبل والنهر صدى أى صدى . وعلى أى حال فقد سرنا في الطريق الأيسر وكانت أرضه ملحة ووايضا من هذا المكان الخوف ولو أن كل هذه المسالك خطرة مفزعة ، متوكلين على الله ، وقصدنا جرجان واستراباد .

وكان قد عرف زعيم يموت ، آتاباي قراخان ، وتعرف عنده بالأمرام والقاضي فرأى أن ينزل عند واحد منهم ، وكان يجهل ما يجري في استراباد . وفي هذه الأثناء قابله رجل فأنبأه بأن بكار بكى قد قبض على قراخان وأن أمامهم ألفين من الثوار يسرون لتخريب جسر نهر جرجان . « فبهت رسول الخان ومن معي وتحميروا جميعا . فقال أحدهم إن الأولى أن نسير في الطريق الأيسر لأنه غير مطروق فأمامنا فرسان سيلاقونا ، وأن دردى قولى خان قد ألقى خيامه هناك وإنه سيسعد بورودنا مخيمه ، وإذا الجأنا الضرورة فإنه يصحبنا وفرسانه إلى استراباد .

ولاحت لنا من بعيد خيام وسراقات فاتجهنا نحوها وحدثنا السير اليها ، عبثا ، اقد ظننا السراب ماء والقطران كافورا عبثا ، فبعثنا من لدنا رسولا يستطلع الخبر فماد يخبرنا بأن الخيام ليست لدردى قولى خان ولكنها خيام يلقاى . وكان العرف عند التراكمة أن من يفد عليهم من عدوهم فهو آمن ولم يكن بد من التقدم نحوهم ، بين اليأس والأمل ، وترجلنا . فأحضروا لنا خنزرا وأكرمونا . وكان من بينهم كثير من الأسرى ، من أهل اردو (إيرانيز) ... وآثرنا الرحيل على المكث ، ولما ابتعدنا مرحلتين أو ثلاثا وجدنا أنهم سرقوا بندقية محمد شريف باى فى العترة القصيرة التى توقفت فيها عندهم ، وأهم أبأوا الأعداء بأمرنا .

وسار رضا قولى خان فرأى هذه القبيلة من ورائه تسير ، تبغى سرقة وتدعى حراسته : ونجاة قام عليهم التركمان الأعداء وأرادوا أن يأسروه فقاتلهم ثم جمع أمره ورجاله واستعدوا للقتال من جديد ، حتى إذا جن الليل تدبر موقفه فرأى القوم لم يناموا ليلتين وأن الطعام نفذ وليس فى جزارهم ماء ، وأبصر فوجد أهل القافلة يتطلعون اليه وقد تفرق الدمع فى أعينهم وأنه هو سبب هذا البلاء كله فأخذ يفكر فى أن يسلم نفسه أسيرا ، ويكفى الله المؤمنين القتال . ولكنه كان قلقا ، فإن الحكومة الإيرانية ستبحث عن سفيرها وتنقذه من الأسر

كى تدفع الإهانة التى لحقتها بالعدوان عايه . ولكنه يخشى أهل السوء من الحكام ، فنههم من لم يكن راضيا بسفارته هذه ؛ وإذا فقد تعدل الحكومة عن البحث عنه وتركه يلقى ذل الأسر وهوان الرق بحجة أنه لم يكن موقفا فى سفارته بل إنه زاد الأمور تعقيدا . أخذ يفكر فى هذا كله وهو متعب مضى ، وقد جلس بين الجمال يتفكر ويتدبر ويترقب . وإذا بالقاضى الذى لقيه عند قراخان يحضر إليه ويعرض المساعدة ، ويتصل أمره بزعماء القبائل ويُنفذ ومن معه ويباغ استرabad .

وقد انتهى أمر خان خوارزم بالقتل وعاد من سلم من رجاله إلى خوارزم ، أما رأس لخان فقد حمل إلى طهران . ويختتم رضا قولى خان رسالته فيقول ناظماً :

شاع النواح والأنين فى خوارزم كلها .
وترددت الآهات والبكا . فى كركانج .
إن تركستان تنفط بالحسرات كأنها جيحون ،
كلها ، من بخارى حتى فرخار .
أناتهم (باردة) كرياح آذر (نوفمبر — ديسمبر) ،
وعيونهم (مشبعة بالدمع) كسحاب آزار (مارس) .
إنهم كالجوم فى الخراب الشوم ،
قد أضناهم فرط الألم .
وقد تذل الصعب من هذا الأمر ،
من تحت كسرى وتدبير الدستور .^(١)

القائمه فاسم :

وهو الشاعر الذى تحدثنا عنه فى آخر فصل الشعر . والذى امتاز برسائله التى كتبها أثناء وزارته لفتح على شاه ومنها رسالته المشهورة التى بعث بها هذا السلطان إلى قيصر روسيا

(١) بمعنى الوزير .

معتذراً عن قتل الإيرانيين البعثة السياسية الروسية في إيران ، وقد بعث بهذه الرسالة مع ولي عهده عباس ميرزا نائب السلطنة . قال فيها :

« وقد بينا في كتاب صادق ، مرقوم ومعلوم ، مفاجأة هذا الحادث ، وأن أمناء الدولة لم يعرفوا من أمره شيئاً . وثانياً فإنه لما بين هاتين الدولتين البالغتين السماء علواً ، من الوحدة التامة والوفاق فقد أخذنا على عاتقنا أن نثار لهذه البعثة فأوقفنا الجزاء على كل من لحقته أدنى شبهة من أهل هذا البلد في المشاركة في هذا الجرم القبيح والإثم الشنيع ، بالزجر والحد والإخراج من البلد . وأخذنا محافظ المدينة وعمدتها بأنهما علما بالحادث متأخرين ، ولأنهما لم يحكما الأمر في المدينة قبل وقوعه ، فمآقيناها بالعزل والتمزيير . وأكثر من هذا فإننا عاقبنا ميرزا مسيخ ، مع ما بلغ في دين الإسلام من مرتبة « المجتهد » ، وهو قدوة الخاصة والعامة ، وذلك لأن أهل المدينة كانوا ملتفتين حوله في المجلس وقت اغتيال البعثة . ولقد عملنا بما بين الدولتين من اتحاد ، فلم نعرف أو نغمض العين ولم نقبل أى شفاعاة أو وساطة من أجله . وإذ رأينا لزما علينا أن ننبي الأبخ الطيب السيرة فقد حررنا هذا الكتاب معبراً عما نكنه من الصداقة ، وتركنا التفصيل لولدنا المؤيد الموفق نائب السلطنة عباس ميرزا . آملمين من أعتاب الله أن يسدد وداد هانين الدولتين الأبدية البناء ، نحو الترقى والازدهار ، وأن تتصل روابط الصداقة والإخاء بين الحضرتين وأن يتأكد بعث الرسل وتبادل الرسائل ويتضاعفا والعاقبة بالعافية .

وأكتفى بهذا القدر عن الكتابة وأنتقل إلى القصص .

القصص

وليس القصص جديداً في الأدب الفارسي ، فنذ زمن بعيد والإيرانيون يعنون بالعاشر من محرم ويذكرون فيه قصة الحسين وبيكون ، ومنذ زمن بعيد أيضاً والفرس يعنون بالتاريخ القصصى ويأخذون في هذا من كتب سابقة على الإسلام وهي كتب « خداوند نامه » أى مير الملوك ، ونظم الشعراء قصصاً مأخوذاً عن اللغة اليونانية ، مباشرة أو بالواسطة ، كقصص سلامان وأبسال التي ذكرت في الجزء السابق من قصة الأدب ، كما نظموا قصصاً دينياً

كيوسف وزليخة ، هذا عدا الحكايات التي قصد بها ضرب المثل في الأخلاق .
ولكن القصص الايراني في القرن التاسع عشر أخذ طابعا جديدا . فإن الأدبيات
الفرنسية ومعظمها قصصى ، قد نقل إلى اللغة الإيرانية ، فقرأ الأدباء قصصا لموليير وفولتير
وغيرها ، وأراد البعض أن يأخذ موضوعا اجتماعيا ويضع عنه قصة على النوال الذي رآه
عند أدباء أوروبا . ومن هذا القبيل ما نشر باللغة الإيرانية من قصص ، وقد ظهرت هذه
القصص أولا في آذربيجان ، باللهجة الآذرية ، ثم نقلت إلى الإيرانية ونشرت في طهران
سنة ١٨٧٤ ، في مجلد يحوى سبعا منها .

ولست في حاجة إلى تلخيص كل هذه القصص . وحسبى أن أذكر فكرة عن واحدة
منها لترى طريقة التفكير والهدف الذي يرمى إليه الكاتب ، وقد اخترت قصة الملا ابراهيم
خليل الكيماوى .

وقد قصد مؤلف القصة ، ميرزا فتح على دربندى ، إلى محاربة فكرة استخراج
الذهب والفضة من النحاس ، وكانت شائعة في إيران في ذلك الوقت ، شيوعها في مصر وبلاد
الشرق عامة . وكانت هذه الصناعة قائمة على الدجل والاستخفاف بعمول الناس وابتزاز
أموالهم . فأخذ المؤلف الفكرة وجعل روايته في أربعة فصول :

قصة الكيماوى :

- ١ -

يمحى المنظر الأول في بيت الحاج كريم الصانع ، وقد دعا إلى بيته جماعة من أصدقائه
ليتعارفوا إلى الشيخ صالح . وكان الحاضرون من الطبقة الوسطى في إيران فمنهم من كان أبوه
من رجال الدين (مُلا) فأخذ عن أبيه وقار المظهر ، ومنهم طبيب يعتمد على ضياع زوجه ،
ومنهم رجل من الملاك . فلما اجتمعوا دخل عليهم شاعر لم يكن رب الدار دعاه ، هو الشاعر
نورى ، ولكنهم رحبوا به فدخل وجلس بينهم .

وأخذوا يتحدثون عن الملا إبراهيم الخليل وكيف يجهل النحاس فضة ويبدل فقر الناس
غنى ، ويضائف لهم الثراء مرات . فأخذ كل منهم يتفكر في كيفية الحصول على أكبر قدر

مكن من النحاس ، ليصيره الكيمائى با كيره فضة براقه .
وقال ابن الملا ، الوقور ، إنه يعرف رجلاً يقرضهم من المال ما يشتهون ويتقاضى فائدة قدرها ١٢ فى المائة واسمه الحاج رحيم ، فاطمان الجمع وأخذوا يترايدون فى القرض الذى يطلبون .

وفى هذه الأثناء يبلغ ضجر الشاعر أقصاه ، فينبهى فجأة إلى قراءة قصيدة كتبها فى غزوة حدثت منذ ستين عاما . ويفض الحاضرون ، ويطلب المضيف من الشاعر أن يطوى الشعر فليس هذا أوانه ، ويدافع الشاعر بشاعريته عن القصيدة ؛ فيحدثه المضيف عن الكيمياء ، والإ كير والثراء فينكر الشاعر هذا القول ويرفع الصوت قائلاً إن مهنة كل رجل هى إ كيره ، وهى الوسيلة لعيشه . وأخذ يبين عيوب الحاج إبراهيم الخليل ويكشف عن خداعه ؛ وعاب على الشيخ صالح قسه بأنه رأى الكيمائى بميزه وهو يصير النحاس ذهباً .

وبهزأ الحاضرون بقول الشاعر ويسأله كل منهم عن هجز الإ كير الذى له عن أن بهي له الحياة الهادئة .

أما الصانع فيسأل الشاعر كيف ينكر وجود الإ كير الساحر ، وبأخذ عليه قوله إن مهنة كل رجل هى إ كيره ، قائلاً إني صانع وأعجز عن كسب ما يبنى بنفقات بيتى اليومية فأين إ كيرى ؟

ويجب الشاعر بأن الصانع لم يتحر الأمانة فى صناعته وأنه كان يبذل الذهب الذى يعهد إليه به بالنحاس والقصدير ، فكشف الناس زيفه وولوا عنه ، فكسد سوقه ، ولو كان أميناً لأثرى من صناعته .

فيسأله الطبيب عن التضييق فى رزقه ؟

فيقول الشاعر : إنك تركت مهنتك وامتهنت ما ليس لك به علم . لقد كان أبوك حلاقاً بارعاً فجمع من صناعته ثروة . ولقد ربناك ونشأك لتخلفه فى مهنته ولكك آثرت اتباع طريقة حلاقى تليس ، فاشتغلت بالطب ولا دراية لك به ، فقتلت من الأنفس ما قتلت فأنصرف الناس عنك . وهأنت نسيت حرفك الأثرى ولم تفلاح فى الحرفة الثانية .

وهنا يسرع الرجل الوقور ، ابن الملا ويقول لو صح قولك لكنت أنا « قارون » ،
وها أنت ترانى لا أملك شروى تغير .

فيقول الشاعر : إن لك من صحتك وبنيانك ما يؤهلك لأن تكون مكاريا ، ولكنك
رأيت أباك « ملا » فاخترت أن تكون « ملا » مثله . ولقد كان أبوك مجدا في التحصيل قادرا
على الإفادة من القراءة فكان من حقه أن يكون « ملا » . أما أنت فنجعل كتابه اسمك
فكيف تتعلم ثم تعلم . لقد حسبت كفاءة العلم كهذا الثوب من الفراء الذى ورثته عن أبيك ،
فلم تلق من الناس تقديراً ، ولو عملت على كسب قوتك مما وهبك الله من بسطة فى الجسم
وقوة وعملت مكاريا لكسبت فى حياتك ما يكفيك ويفنيك .
فانبرى صاحب الأملاك يسأله عما حال دون ثرائه .

قال الشاعر : كان عليك أن تنسى ثروتك بمراعاة زرعك وحصادك ، ولكنك قضيت
وقتك فى سخب الحديث ، وإنك لتقدم على أمر فلا تتمه وتنصرف إلى سواء ، تغتاب الناس
وتثقل على الحكام بما تبذل من وساطة لحماية أهل السوء وإيذاء الأبرياء . وقد آل أمرك ،
لسوء سيرتك ، إلى الحبس ثلاث سنوات ، فبذلت من أموالك لنفك قيدك ، أتريد أن تنفق
من رأس مالك ثلاث سنوات وأن تزداد ثروتك وينمو دخلك ! وها أنت تبحث عن الثراء
عن طريق الاستدانة وتبديل النحاس . مثلك كمثل مشهدى الجبار ، التاجر الذى دفعه
حرصه على جمع المال ، إلى أن يقرض الناس بالربا الفاحش ليصبح من ذوى الثراء ، هيهات
له اليوم أن يسترد ما قدم للناس .

وهنا يصبح الصائح ويسأل الحاج نورى الشاعر ، بأنه وقد بين عيوب الحاضرين جميعاً
وانصرف كل منهم عن الطريق السوى للعيش الهادى الناعم ، أن يبين لهم سر فقره وأنه
إذا حصل على العشاء لا يجد ما يفطر به . فأين الإكسیر والشاعرية فى برجها لم تضل ؟

فيقول الشاعر : إن شاعرتى هى إكسیری فى الحياة . ولكنها كهذا الإكسیر الذى
تتحدثون عنه يلزمها المعدن الذى تتجلى عليه . والمعدن عندى هم الرجال الذين يستمعون إلى
الشعر ويقدرونه ويكاثنون الشاعر على إبداعه . فإذا كان الناس من أمثالكم فهل تريد
لهذه الشاعرية أن تسد حاجتى وتسعدنى كما سعد الشعراء من قبل ؟

وصاح الجميع بالشاعر وطرده فخرج وهو يطوى القصيدة ، ويقول : إن قول الحق سر .
واتفق الحاضرون على تهيئة النقد النحاسي واقتراضه من الحاج رحيم والذهاب إلى الملا
إبراهيم الخليل .

وينتقل النظر الثاني إلى تل تبدو فيه الطبيعة وقد بلغت غاية الجمال ، وهناك خيستان ،
وعلى بعد قليل منهما كوخ من الخشب يرى في داخله موقد كبير ، وبجانبه كور وسبائك
نحاس متكئة . وأمام الخيبتين خيمة ثالثة صغيرة . أما الخيم فواحدة لسكن الملا خليل
إبراهيم ، والثانية لمساعدة الملا حميد ، والثالثة للخادم الدرويش عباس ، وقد امتلأت
بالأدوات والعدد .

وكان الكياوى يعلم بمجيء الجماعة في هذا اليوم فاتفق مع مساعده على أن يقابلهم وأن
يخبرهم أن النضة قد يمت ، وأن الدفعة التالية قد وُعد بها جماعة أخرى ، وأنه لا يُقبل منهم
نحاس قبل ثلاثين يوماً . فإذا طالبوا بمقابلة الكياوى فعلى المساعد أن يخبرهم أنه معتكف
ثلاثة أيام يصلى فيها ويدعور به ولا يقابل أحداً .

ويحضر الجماعة في المساء فيخبرهم المساعد بما اتفق عليه مع الكياوى ، ولكنهم ينتظرون .
وفي هذه اللحظة يخرج الدرويش عباس من خيمته ، وهو شاب في الثلاثين من عمره
أصفر الوجه ، يتدلى شعره على كتفيه ، وقد أطلق لحيته وحلق شاربه ، ولبس فوق رأسه
طرطور الدراويش ، وظهره مغطى بجلد نمر ، وقد أمسك بإحدى يديه بوقاً وتحت إبطه ديك
أحمر الريش ، وكان يصيح بصوت عال :

يا هو يا حق !

ثم سار بجوار الخيام وعلى مسافة قصيرة منها دق وتبدأ ثم نفخ في البوق ثلاث مرات
فكان للصوت صدى بعيد تردد في الوادي القسيح . ثم شد الديك إلى الوتد ، وتلا بصوت
عال ثلاثة أبيات من شعر سعدى . ثم نفخ في بوقه ثلاث مرات أخرى وخاع جلد النمر وطرحه
على الأرض على عشر خطوات من الديك ثم جلس وأخذ يصيح في صوت رهيب : يا حق

يامو . ثم جلس على ركبتيه فوق الجلد .
ورأى الجماعة هذا المنظر وسموا الدرويش فوقفوا مشدوهين . فلما خيم الكون على
المكان أخذوا يلحون في الأسئلة على المساعد . وسألوه عن الدرويش والديك فقص عليهم
أمرها وهو يضحك من جهاهم . إن هذا الحشيش الذي ترونه هو عنصر أساسي في الإكسير وهو
لا يوجد في غير هذه النلال . ولا يعرفه أحد غير الملا ابراهيم الخليل ، وهو ينمو أثناء صباح
الديك فواجب هذا الدرويش هو أن يأخذ الديك كل ليلة ثم يتلو المراسم ويربطه ثم
يراقبه طول الليل ليمد عنه الثعلب وابن آوى . فيتعجب الجماعة ويصبحون في نفس واحد :
الله أكبر والحمد لله .

والنظر الثالث في خيمة الملا ابراهيم الخليل ، وهو يجلس إلى القبلة وفي يده مسبحة بها
ألف حبة ، وهو يتم بالصلاة وأمامه مساعده وقد وضع يديه على صدره .
ويتحدث اليهم الكياوى ويمتد اليهم بما سبقه مساعده اليه ، ويقول إن الإقبال
على العضة شديد وإن الناتج يباع مقدما ، وإنه لم يخبر الملا حميد مساعده بصفة عقدها مع
اليهود لأنه يفضهم ؛ ولكنه قد وعدم ووعدهم الحردين عليه . وهنا يجازل الملا حميد أن
يقاطعه مظهراً التحامل على اليهود ، فيسكنه الكياوى الذى يبدأ في شرح كيفية
استخراج الإكسير مؤكداً لهم أنها مسألة علمية بحنة وليست إلهاما يلهم أو وحياً يوحى ،
وأنه بشر ، بشر مشاهم ، لا يبنى غير صحة الأتقياء ويطمح إلى تأدية صالح الأعمال ، فيرضى
ربه أولاً ويتعمق في علم الكيمياء ثانياً .

ويتوسط الملا حميد ، المساعد ، لدى أستاذه بحجة أنهم مسلمون وأنه وعد اليهود
ولا يستوى المسلم واليهودى .. ويأبى عليه سيده هذا التعصب ، ويؤكد أنه لا يعدل عن
كلمته ولو أخذ مليونين مقابل الخلف ... ولكنه في نهاية الأمر يرى أسراً وسطاً .. ثم
ينظر إلى الجماعة ويبدى عدم المبالاة بتقدم ويقول أعطوه للملاحيد وعدوه له وعودوا بمد
ثلاثين يوماً ويستأذنه كي يصلى صلاة الظهر .
وينصرف الجماعة بعد أن هدأت نفوسهم بالحل السعيد .

وتنقضى الأيام الثلاثون ويرى الملا ابراهيم الجماعة قادمة من بعيد في الصباح الباكر ،
فيسرع إلى ارتداء ثوب أبيض ثم يشمر أكمامه ... ويخرج من مخيمه وينادى للملاحيد .
ويعد هذا الموقدَ وتشتعل النار وبجانبها أدوات العمل والبوتقة فوق النار تغور ، والملا
ابراهيم منهك في العمل بكل وعيه .

وأقبل الجماعة فخيوا بتحية الإسلام .. فتجهت وجه الملا ابراهيم وصاح : لماذا لماذا ؟
ماذا جاء بكم اليوم ، يا المصيبة ، أى بلاء يصب فوق رأسى انصبا ، أجتثم لتفسدوا عملى ،
أجتثم لتضيعوا سدى جهدى من أجلكم ، وامصيتاه ! وامصيتاه !

ويتساءل الجماعة في دهشة ماذا حدث فيخبرهم الكيماوى بأنهم جاءوا فى اللحظة التى
يتفاعل فيها الجوهر فيخرج الإكسير ، والشرط أن لا يقرب أحد البوتقة قدر فرسخ ،
وإلا تحول الإكسير إلى غاز متصاعد لا خير فيه ولا جدوى ..

وفى حسرة وخيبة أمل وسوء طالع يقول الجماعة إنهم أتوا فى الموعد المضروب .

فيقول الملا إبراهيم إنى قلت بعد ثلاثين يوما فالموعد غداً وليس اليوم ، ثلاثين يوما
كاملة . ويتساءلون . هل من مخرج من هذا المأزق ؟ فيجيب بأن عليهم أن لا يغادروا المكان
وأن يصلحوا ما دبرته الصدفة السيئة ، وذلك بأن ينتظروا الفترة التى يعد فيها الإكسير فى
البوتقة ؛ على أن لا يتخلوا القرد أو صورة له أو شبيها به ، وإلا فإن الإكسير الذى بذل
شهرًا كاملاً فى إعدادة يصبح فى لمح البصر هباءً منثورًا .. فأجاب الجماعة بأن الأمر يسير
التحقيق . ولكن الطيب لا يقدر أن يبعد صورة القرد عن مخيلته فيصرح للكيماوى بما
يرى فينهره هذا ثم يأمر مساعده بأن يشتد فى نفخ الكور .. وتتراأى صورة القرد أمام
الجماعة فيصيحون بما صاح به زميلهم ... وبيناهم فى حيرة وذ هول من صورة القرد التى
تقفز أمام أعينهم من شدة ما فكروا فى إبعادها عن خواطرهم إذا بالملا ابراهيم يلقى بعض
المواد فى البوتقة فتتفجر ويخرج الإكسير فيدوى صوته دويًا شديدًا .. ويرتمى المساعد إلى

الوراء فزِعاً ، أما الملا إبراهيم فيأق بنفسه على الأرض ويضرب ركبنيه ، ويلتفت إلى الجماعة ويدعو الله أن يخرّب بيوتهم ثم ينهال عليهم شتماً وسباً ... وأخذت الجماعة تهدي من ثورته ، وأخيراً يأمرهم بالانصراف إلى القرية القريبة وبأن يحضروا في اليوم الواحد والثلاثين بعد اليوم وبأنه سيعطيهم فضة بدل ما تبقى من نحاسهم ، وسيعطيهم مقابل الفوائد عن تقدم المحجوز ؛ فإن قليلاً من الفضة لا يضيره شيئاً وهو يفيد الجماعة فائدة جمة .. وانصرف إلى نحيبه مطأطئ الرأس يقول لنفسه : نعم اذهبوا وانتظروا دعوتى ولعل الله أن يهينى في هذه الفترة الوسيلة للخلاص منكم !

خاتمة

وكما كان في أول القرن التاسع عشر خير إيران فأتمحت ولاياتها وأتيح لها ملوك أقوىاء وأطمأنت نفوس الإيرانيين إلى الدولة الجديدة وأخذوا يعملون على إسعاد البلاد ويسيرونها نحو المجد والخير فإن نهاية هذا القرن كانت وبالاً على إيران إذ فقد القاجاريون ما كان لهم من قوة وقدرة على الحكم فعملوا على صيانة مراكمهم أكثر مما عملوا على صيانة البلاد نفسها من المستعمرين ، وتطلع الناس إلى من يخلصهم من الشر الذي يهددهم شر تهديد ، وفي الوقت الذي كانوا ينادون فيه بالحربة وبالمشاركة في الحكم ، مما أدى إلى منقحهم الدستور في أوائل القرن العشرين ، كانوا يحسون بالحاجة إلى رجل من طراز آخر يحول دون الاستعمار ويدفع الغزاة عن إيران ويميد إلى البلاد هيتها ووحدها . وقد فاض أدب هذه الفترة بهذه المعاني كماها فترى الشيباني يسخط على القاجاريين^(١) وينقم عليهم سياستهم ويتمنى زوال دولتهم ، وأحمد روجي وميرزا أغا خان الكرمانى يطالبان بالإصلاح في شدة وعنف وقد قتلا عام ١٨٩٦ ، وقد قال الأخير قبيل قتله يستعيز بالله أن تسقط إيران في يد الغزاة ، فهو لا يريد أن يرى اليوم الأسود الذي تقع فيه هذه العروس في يد الشبان الروس أو الإنجليز . وكانت هذه الأفكار مقدمة لأدب القرن العشرين .

(١) اختلف الكتاب في معنى كلمة قاجار وبالتالي في رسمها وقد آثرنا الرأى القائل باشتقاقها من القاصد التركي قاجمق ومعناه الصدو .